الغرفة الصفراء

مغامرات أرسين لوبين

الغرفة الصفراء

الكاتب الفرنسي المعروف

موريس لبلان

ترجمة

يوسف أبو الحجاج

القسم الأول

الغرفة الصفراء

طوى الرجل الجريدة ووضعها أمامه ونظر إلى المائدة المجاورة ولم يتمالك نفسه من الابتسام.

كانت الفتاة التي جلست إلى تلك المائدة تحاول التفاهم مع خادم المطعم، والخادم لا يستطيع أن يفهم عباراتها الفرنسية السقيمة التي كانت تنطق برطانة أجنبية.

وأحست الفتاة بعجزها ونظرت حولها وفي عينيها مزيج من اليأس والحرج، وتعلقت عينيها بعيني الرجل لحظة، وأحس الرجل بأنها تستنجد به وتدعوه إلى التدخل. وكان قد فهم غرضها فالتفت إلى الخادم وقال له بالفرنسية في هدوء ولكن بلهجة حاسمة:

- أصغ إلي يا هذا، أن الآنسة تطلب مزيجاً من النبيذ الجيد

والفرموت مع قطعة رقيقة من قشر الليمون.

فأحنى الخادم قامته وانصرف لتلبية الطلب وأشعل الرجل لفافة تبغ وراح يدخن في لذة وارتياح كأنما لا يوجد في الدنيا ما يشغله غير جارته الحسناء التي جعل ينظر إليها خلسة من ركن عينه.

وبعد قليل عاد الخادم ووضع أمام الفتاة قدحاً فتناولته ورفعته إلى فمها، في حذر وتذوقته في بطء وقلبت شفتيها باشمئزاز ولم يتمالك الرجل من الابتسام فقالت له الفتاة بالإنجليزية.

– ليتنى أتكلم الفرنسية كما تتكلمها لكي أقول لهذا الخادم كلاما لا يسره.

فأجاب الرجل: أن خدم المطاعم والفنادق قلما يأتونك بما تريدين، باستثناء خدم المطاعم في انجلترا وأمريكا.

ثم أستطرد بعد صمت قصير: هل تجدين صعوبة في التفاهم مع أهل باريس؟

فأجابت ضاحكة: أنك رأيت بنفسك مثلاً من أمثلة هذا التفاهم، ولكنى ألاحظ أنك تتكلم الإنجليزية بطلاقة، فهل أنت فرنسي؟

– نعم، ولكني أعتبر نفسي رجلاً دولياً وأتكلم بضع لغات كما

يتكلمها أهلها.

– هل ذهبت إلى انجلترا أو أمريكا؟

فابتسم الرجل وأجاب في شيء من الاسي:

– ليتني أعرف مكاناً لم أذهب إليه.

فنظرت إليه طويلاً في فضول والتقت عيونهما مرة أخرى قالت فجأة: حدثني أيها الغريب، أين تستطيع فتاة أو تقضى سهرة ممتعة، فتاة توشك أن تقدم على مغامرة فإذا فشلت فلن يكون في مقدورها بعد ذلك أن تختار المكان الذي تذهب إليه، هل فهمتني؟ أريد سهرة من نوع يترك في النفس أثر لا يمحى.

فصعدها الرجل بعينيه وفكر لحظة ثم أجاب:

– أن باريس كلها تحت تصرفك، فهل تريدين قضاء السهرة في أحد المنتديات الليلية المحترمة، أو في أحد الصالونات غير المحترمة؟؟

– أيهما تفضل؟

– أنا شخصياً اقترح قضاء سهرة شاعرية في مطعم هادئ بشارع سان لورانس اشتهر بأطعمته الإنجليزية الشهية، وبعد ذلك نرى ما سوف يكون.

– وأنا قبلت اقتراحك أيها الغريب.

– ودعا الرجل الخادم ونقده الحساب بينما حملت الفتاة حقيبتها وقفازها وانصرف الاثنان معاً، واستقلا سيارة أجرة كانت بالباب.

قالت الفتاة:

– أن لدى فسحة من الوقت حتى منتصف الليل أيها الغريب.

وخلعت قبعتها وأسندت قدميها الصغيرتين على المقعد المقابل، وسقط نور مصابيح الشوارع على وجهها، ورآها الرجل بكل فتنتها وجمال طلعتها.

سألها: وبعد منتصف الليل. ألا تتركين لي فردة حذاء على سبيل الذكرى؟

– بل سأترك لك الحذاء كله.. لأن هناك منزلاً يجب أن سطو عليه.

وتناولا معاً عشاء شهياً اعترفت الفتاة بأنها لم تتذوق في باريس طعاماً في جودته ولذته. ثم قبلت من الرجل لفافه تبغ أشعلتها بعود الثقاب الذي قدمه إليها، ونظرت إلى مضيفها في شيء كثير من عدم الكلفة، على نحو ما يحدث بين شخصين أستمتعا بأكلة واحدة.

– قالت: يسرني أنني قابلتك أيها الغريب. فأنت إنسان تقابل الأمور في هدوء ولا تلقى أسئلة محرجة.

فأبتسم الرجل.

لقد تعود أن يسمع عن نفسه أطراء من هذا الطراز.

أجاب: أننا معشر اللصوص قلما نفقد هدوء أعصابنا واتزان تفكيرنا، أما عن الأسئلة المحرجة فهذه يمكن إلقاء الكثير منها فيما بعد.

فأرسلت من فمها خيطاً رفيعاً من الدخان راحت ترقبه وهو يتصاعد نحو السقف ثم قالت في هدوء:

– سأتحدث إليك في صراحة أيها الغريب، أن النساء حين الثرثرة، وما ألذ الثرثرة في ليلة كهذه يبدو كل شيء فيها كأنه حلم، أننا لم نلتقي قبل الآن، وقد لا نلتقي أبداً بعد ذلك فهذا اللقاء من النوع الذي ليس له ما وراء إلا الذكرى.

– ومن هو الوحش الذي ستفتكين به الليلة؟

– أنه أحد الذئاب التي يراها المجتمع في ثياب الحملان، هل سمعت عن بيرت نورثويد؟؟

نعم، أن الرجل الغريب قد سمع عن بيرت نورنويد، بل ويعرف الكثير عنه وعن أمثاله ممن أثروا خلال الحرب بوسائل ملتوبة، أنه يعرف أن نورثويد جمع ثروة طائلة من توريد الأحذية لجنود الحلفاء بثلاثة أمثال ثمنها الحقيقي وأنه أصبح بفضل هذه (الخدمة الوطنية)

من كبار الأغنياء، ولا تزال فروع مؤسسته تعمل في جميع العواصم الأوروبية والأمريكية أما الرجل نفسه فإنه تقاعد وترك الإشراف على أعماله الكثيرة للعنصر النسائي في أسرته لأن الأسرة خلت من الذكور.

أجاب الرجل: نعم، أنني سمعت عن نورثويد، أنه أحد أئمة الصناعة في العالم.

فقالت الفتاة: وهو كذلك عمى، وأنا أدعى أميلي نورثويد وحمد الرجل الله على أنه لم يصارح زميلته برأيه الشخصي في برت نورثويد وو ما كان ليكتمه لو أن هذا الأخير كان موجوداً.

قال ببرود:

– أنني آرثي لك يا آنسة.

فقالت: أن أبي أستاذ للهندسة في (تورنتو) بكندا، ومن المؤكد أنك لم تسمع عنه قبل الآن، ولكني أعتقد أن الله لم يخلق أخوين يختلف كل منهما عن الآخر كما يختلف أبي عن أخيه، كان كل هم عمى أن يبحث عن النقود ويختزنها، أما أبى فلم يكن كذلك قط. أنه رجل هادئ كريم لا يختلف عن أي إنسان عادي، وهو خارج عمله أشبه بالأطفال سذاجة ووداعـة، وقد بدأ كلامها من الحضيض وحقق كل منهما

أهدافه، فجمع عمى ثروة طائلة، وأتم أبي دراسته والتحق بجامعة (تورنتو) وحصل على درجة جامعية، ووصل إلى مركزه العلمي الحالي ثم جاءت أمي ففرقت بين الرجلين كان عمى يريدها زوجة له. ولكنها اختارت أبي زوجاً لها.

فهز الرجل رأسه في صمت واستطردت الفتاة:

– لم يكن لأبي ذنب في ذلك، ولكن عمى لم يغفر له قط، ولا أظن أنه غار من أبي أو أنه كان يحب أمي حقيقة، واعتقد سبب حنقة وغيظه أنه اصطدم لأول مرة في حياته بشيء لا يمكن شرؤه بالمال، فخدش ذلك كبرياء وآثار ضغينته.

ومهما يكن من أمر فإنه لم يفصح عما يعتمل في نفسه، وظل يتظاهر بالحب والعطف ولم يترتب أبي من ناحيته في شيء، ولكني أرى وألاحظ وكثيراً ما حاولت أن ألفت نظراً أبي إلى أن أخاه لا يضمر له خيراً ولكنه كان يرفض الإصغاء لي، بل وأكثر من ذلك أنه ساعد بيرت على مضاعفة ثروته، لأنه مخترع بارع وقد صنع لعمى خلال الحرب آلات تنتج ضعف كمية الأحذية بنصف التكاليف، وأظن أن عمى كافأه على ذلك بأن أعطاه مائة دولار.

وهنا ابتسمت الفتاة واستطردت:

– لقد بدأت القضية تبدو كإحدى الروايات البوليسية أليس كذلك؟

– أنني أحب هذا النوع من القصص.

فازدررت الفتاة ما كان في قدحها من نبيذ وقالت:

– ومع ذلك فإنها قصة لها مثيلات في كل يوم.

لقد شرع أبي منذ عامين في ابتكار جهاز للسيارات ينقل سرعتها بطريقة آلية، هل تفهم ما أعنى؟ أنه جهاز يساعدك على قيادة السيارة دون أن تستخدم أي شيء آخر غير (الفرامل)، جهاز ينسق سرعة السيارة في الطرق المرتفعة والمنحدرة ووسط الزحام دون أن تحرك أنت ساكناً، وأنه موضوع فني لا ضرورة الآن للإفاضة في وصفه وشرحه ويحسبي أن أقول لك أن سيحدث انقلاباً خطيراً في صناعة السيارات، وإنه يساوى ثروة جسيمة، وقد أنفق أبي في سبيل صنعه وتحسينه كل ما أذخر طيلة حياته وأحس منذ ثلاثة شهور بأنه لا يملك ما يساعده على الاسمرار للوصول باختراعه إلى أقصى حالات الدقة والإتقان فلجأ إلى عمى بيرت في طلب المساعدة.

وصمتت الفتاة، وكان الرجل يصغى إليها بانتباه، وعقله يعمل بسرعة، فأرسل من فمه سحابه من الدخان، نظر من خلالها بأمعان إلى

وجه الفتاة بنظرة صريحة فاحصة نفاذة وقال:

– وقد ساعده نور ثويد طبعا.

– أن عمى أقرضه خمسة آلاف دولار بضمان اسمي... أو هكذا قال له، ضمان اسمي لا أهمية له، وهو عبارة عن طائفة من الوثائق أمضاها أبي للشكليات فحسب، وأظنك أدركت معنى هذا.

– أظن ذلك.

– أن تصميم الاختراع موجود الآن في خزانة عمى بقصره في (سان كلو) وهذا التصميم هو عصارة ذهن أبي، وخلاصة تفكيره وعلمه وجهوده في عشرات السنين.

وتوجد مع التصميم في الخزانة ورقة بخط أبي تقول أن الاختراع أصبح ملكاً لعمى، وله كل امتيازاته ومن حقه أن يستغله على الوجه الذي يريده ولم يقيد هذا الحق بحد أو تاريخ، وكان المفروض أن ينتهي حق عمى في الامتياز في الموعد الذي يتم فيه سداد القرض، ولكن الورقة لم يذكر بها شيء من ذلك. لأن أبي رجل طيب القلب، لا يعرف الخدع القانونية، وقد أمضى هذه الورقة في غيابي لم أعرف بأمرها إلا بعد فوات الوقت.

فقال الرجل في هدوء:

– هل أفهم من ذلك أن قصر عمك في (سان كلو) هو المكان الذين تريدين السطو عليه الليلة؟

فنظر إليه بأمعان، دون أن يهتز لها هديب، نظرة صريحة تنم عن العزم وقالت في هدوء:

– أصغ إلى أيها الغريب، سأظل ازعم أن هذه الليلة كلها حلم من الأحلام وأن ما دار بيني وبينك هز جزء من هذا الحلم لممتع، ولولا ذلك ما صارحتك بكل هذا، نعم، أنني سأسطو الليلة على قصر عمى إذا استطعت، وسأحاول الاستيلاء على مفاتيحه وفتح خزانته وسرقة تصميم الاختراع والوثيقة التي مضاها أبي، إذ لا أمل في أن يتمكن أبي من سداد القرض، عمى يعلم ذلك، وقد اتخذ فعلاً كافة الإجراءات اللازمة لبيع الاختراع لشركة السيارات (فورد) ولا توجد أية وسيلة قانونية لمنعه من عقد هذه الصفقة من القضايا التي يمنح فيها القانون تسعة أعشار ملكية الشيء لحائزه، فإذا استرددنا العقد والتصميم فلن يجرؤ عمى بيرت على رفع الأمر للقضاء وعرض تفاصيل الصفقة علانية، لأنها صفقة مخزية له، ويجب عليه أن يبسطها أمام القضاء إذا أراد المطالبة بشيء، فهل ترى فيما اعتزمت خروجاً على الصواب

ولمنطق؟

– إلى حد ما.

فقالت وهي تحرك الكأس بين أناملها:

– ربما، ولكن حدثني أيها الغريب، هل سمعت عن شخص يدعى لوبين؟

– فأجاب الرجل في بساطة:

– أرسين لوبين؟ ومن ذا الذي لم يسمع عنه؟

أنني قرأت وسمعت عنه الكثير وأحسب أنه الوحيد الذي يستطيع القيام بهذه المغامرة. أنها مغامرة عادلة رغم ما تنطوي عليه من خروج على القانون، فليتنى أستطيع مقابلته، فإن مثله خير من يفهم هذا الموقف على حقيقته.. أنت كذلك إنسان حسن الإدراك أيها الغريب، وقد أصغيت إلى في صبر وأناة وقد رفه ذلك عنى وساعدني على المضي في سرد قصتي إلى النهار، والآن أرجوك أن تنسى أو كل ما سمعته ولنتحدث في شيء آخر.. أي شيء آخر بروقك.

فملأ الرجل قدحه ورفعه في يده، وقال وقد أشرق وجهه فجأة:

– لا أظن أتني سأنسى أو أتناسى يا أميلي، أنا أرسين لوبين، ولم تخلق بعد الخزانة التي أعجز عن فتحها وسنذهب معاً إلى سان كلو.

قالت الفتاة: هو ذا القصر.

وأوقف لوبين السيارة.

كانت سيارتها وقد تركته يقودها.

ووجد لوبين نفسه أمام قصر فخم مشيد على الطراز النابليوني فوق أكمة بعيدة عن الطريق وتحيط به حديقة مترامية الأطراف.

غادر السيارة ووقف يتأمل القصر وخيل إليه بعد قليل أنه يعرف كل ركن فيه كما لو كان أقام به عدة أعوام، فقد نقلت إليه الفتاة بوصف مسهب لمداخل القصر ومنافذه وقاعاته وأروقته، ورسمت له على ورقة في المطعم وهما يتناولا أقداح القهوة صورة صحيحة عن مواقع الغرف ومكان الخزانة من الغرفة التي يدعوها عمها (لغرفة الصفراء).

وكان الليل قد انتصف أو كام، والسماء مظلمة لا قمر فيها ولا نجوم، كانت ليلة صالحة للمغامرة من جميع الوجوه.

قالت الفتاة: أنني مازلت أجهل لماذا تتكلف هذا العناء تجازف من أجلي.

فأجاب: لأنني أحب هذا النوع من المغامرات؟ أن لي رأياً خاصاً في نورثويد وكنت أتوق إلى مثل هذه الفرصة منذ وقت طويل، ولو قد سمعت بقصتك وأنا على بعد مئات الأميال لما تردد في القدوم.

- ألا ترى من الأوفق أن أرافقك؟

فأجاب وهو يشتم الهواء النقي ملء رئتيه:

- هذه مهنتي وأنا أدرى بها منك.

- ولكن هب أن عمى استيقظ من نومه.

- سأعرف في هذه الحالة كيف أجعله يعود إلى النوم.

- وإذا فاجأت الخدم؟

- أشد وثاقهم واقذف بهم من النوافذ.

- ولكن هب أنه قبض عليك؟

فأجاب ضاحكاً: في هذه الحالة يكون العالم قد قرب من نهايته، ولكن لا تقلقي، وعلى فرض وقوع هذا فلابد من حدوث ضجة تبلغ إلى مسامعك وتنبهك إلى الخطر وعندئذ يتعين عليك أن تهربي بالسيارة إلى باريس، وتنتظري النتيجة هناك، أنها أصبحت مغامراتي.. لا مغامراتك.

قال ذلك ومشى إلى سور القصر بسرعة القط وخفته.

لم يرى نورا في النوافذ ولكنه دار بالقصر ليكون على يقين. وكانت عيناه قد ألفتا الظلام فلم يحدث أية حركة تنم عن وجوده.

وما هي إلا دقائق حتى كان قد وثب فوق السور واجتازا الحديقة ووقف أمام الباب الداخلي.

كان بابا ضخماً من الخشب السميك فلم يكلف لوبين نفسه عناء معالجته واستقرت عيناه على نافذة في الطابق الأرضي، كان فتحها بالنسبة إليه لعبة أطفال.

وما هي إلا لحظة حتى فتحت النافذة فوثب منها إلى الداخل ووجد نفسه في مطبخ القصر فأضاء مصباحه وأجال الطرف حوله ووقع بصره على لوحة المفاتيح الكهربائية التي تتحكم في أنارة القصر، وآها في نفس المكان الذي ذكرته أميلي فسار إليها وانتزع المفاتيح وقطع تيار الإضاءة وأحس بالطمأنينة.

وإذا أحس به أهل القصر فإنهم سوف يتخبطون في الظلام ويتعذر عليهم مطاردته.

ثم سار إلى صالة القصر ورفع مزاليج الباب الكبير.

لقد كان يدين بحريته لبعد نظره وحرصه دائماً على أعداد منفذ أو منفذين للافلات إذا تحرجت الأمور وحدت ما لم يكن في الحسبان.

ثم قصد بعد ذلك إلى (الغرفة الصفراء) في المكان الذي وصفته

(أميلي) واهتم بفتح نافذتها قبل اهتمامه بالبحث عن الخزانة.

لقد قالت له أميلي أن الخزانة موجودة داخل الجدار وراء أحد دواليب الكتب فإذا فتح باب الدولاب ظهرت الخزانة.

وقد وجد الخزانة حيث وصفتها أميلي، وما أن سقط عليها ضوء مصباحه الكهربائي حتى أدرك أنها ليست من النوع الذي يفتح ببساطة.

لم يتعود لوبين أنه يحمل أدوات العمل، ولا أن يحشو جيوبه- كما يفعل بعض المبتدئين- بالمواد الحارقة أو الناسفة أو بأجهزة إذابة الفولاذ فصح عزمه على فتح الخزانة بمفتاحها فتسلل إلى خارج الغرفة وصعد السلم بخطي لا تسمع وقصد إلى حيث يوجد مخدع نورثويد.

وكان نورثويد مستغرقاً في نومه وهو يغط بصوت مسموع، ولو أنه كان مستيقظاً لما سمع حركة فتح الباب أو وقع خطي لوبين وهو يتسلل إلى الداخل ثم وهو يتناول حزمة المفاتيح من درج المائدة الصغيرة المجاورة للفراش، أو وهو ينتزع من حول عنقه سلسلة ذهبية يتدلى منها مفتاح قد يكون هو مفتاح الخزانة.

وهبط لوبين درج السلم كأنه شبح، وعاد إلى الغرفة الصفراء وسلط نور مصباحه على باب الخزانة واختار من بين المفاتيح واحداً رجح أنه المفتاح المطلوب.

وما أن وضع المفتاح في قفل الخزانة وإدارة حتى فتح بها بحركة أدخلت السرور على قلبه فمد يده المقفزة وفتح درجاً كبير في قاع الخزانة ووجد حزمة من الأوراق مربوطة بخيط وقد كتب على ظاهرها بحروف كبيرة (جهاز القيادة الاوتوماتيكي).

وقطع لوبين الخيط وبسط الأوراق بين يديه فرأى الرسوم التصميم ووثيقة قانونية ورسائل من بعض مصانع السيارات في أمريكا.

وقضى لوبين الدقائق العشرة التالية في عمل غامض استغرق كل تفكيره وعنايته فلم ينتبه إلى حركة خافتة مبهمة كان من الممكن أن تلتقطها أذناه الحساستان لولا انشغاله بالذي بين يديه.

على أنه لم يلبث أن شعر بالخطر حين سمع وقع أقدام فتحرك بحذر إلى الشرفة الملحقة بالغرفة، واقترنت هذه الحركة لمسات خشنة، وكان ذلك كله مفاجأة له فرفع رأسه وأجال النظر حوله كمن لا يصدق أذنيه.

وفي هذه اللحظة وقع بصره مصادفة على الخزانة التي أغلقها في التو واللحظة، وحينئذ تبين وجد أنبوبة معدنية رفيعة ممتدة من الجدار إلى أجد أركان باب الخزانة، وأدرك على الفور أن هذه الأنبوبة هي جزء من جهاز الإنذار مثبت بالخزانة، ولابد أن يكون هذا الجهاز بعزل عن

التيار الكهربائي الذي يضيء البيت.

ولم تكن اميلي قد ذكرت له شيئاً عن الجهاز، ومن المحتمل أن يكون نورثويد قد احتفظ بأمر الجهاز سراً فلم يتحدث به إلى أحد.

وأطفأ لوبين مصباحه الكهربائي على الفور ووثب نحو باب الغرفة وفتحه في حذر وخرج إلى الصالة.

وحينئذ وجد بينه وبين الباب الخارجي خادماً ضخماً الجثة يحمل في يده هراوة غليظة.

ونظر إلى الردهة الضيقة الموصلة إلى المطبخ، ورأى خادماً نحيف الجسم مفتول الساعدين يتقدم نحوه بخطى لا تكاد تسمع.

وأرسل بصره إلى السلم، وهو المنفذ الأخير، ورأى نورثويد واقفاً أعلاه وبإحدى يديه شمعة مضاءة، وبيده الأخرى مسدس.

ولم يفقد لوبين صوابه وتلاعبت على شفتيه ابتسامة وقال في أدب:

– طاب مساؤكم أيها السادة!! يؤسفني أنني أقلقتكم هذه الساعة المتأخرة من الليل.

ثم نكص على عقبيه وعاد مسرعاً إلى (الغرفة الصفراء) وأغلق بابها وراءه بصوت مسموع.

وكانت جرأته قد أذهلت الخادمين فجمدا في مكانهما لحظة ثم هجماً على الغرفة الصفراء في وقت واحد، ولحق بهما نورثويد ولكنه لم يجازف بالدخول بل وقف بالباب ورفع الشمعة فوق رأسه ليتسنى له رؤية ما يحدث في الداخل.

ووقف الخادمان فجأة ولم يصدقا عيونهما، وفقد كانت (الغرفة الصفراء) خالية تماماً.

ولكن الخادم الضخم كان أسرع من زميله في استرداد أنفاسه فمشى إلى مقعد كبير في ركن الغرفة واطل وراءه، وتشجع الخادم الآخر وأسرع إلى ستار النافذة وحركة ووجد النافذة مفتوحة.

وبينما الخادم الضخم يحرك المقعد، وزميله يطل من النافذة، وثب لوبين من فوق سلم وراء الباب كان يستخدم بغير شك للوصول إلى الرفوف العليا بدواليب الكتب وهبط بكل ثقله على رأس نورثويد فأفلتت من فم هذا الأخير صيحة ذعر وسقطت الشمعة من يده وانطفأت فدفعه لوبين إلى داخل الغرفة وأغلق بابها.

قال لوبين: لا يزال لدينا متسع من الوقت لقضاء ساعة في إحدى المراقص.

فذعرت الفتاة ونظرت حولها ورأت لوبين يخرج من الظلام.

قالت وهي تلهث: هل كان من الضروري أن تخيفني على هذا النحو؟

ولكنه ضحك ونظر وراءه إلى القص حيث سمع ضجة كان وقعها في أذنيه أعذب من أنغام الموسيقى.

ووثب لوبين إلى السيارة وادار محركها فسألته الفتاة:

– وهل حدث ما لم يكن في الحسبان؟؟

فأجابها: لم يحدث ما يتعذر تلافيه.

وانطلقت بهما السيارة تسابق الريح وأشعل لوبين لفافة تبغ راح يدخنها في هدوء ولذة.

سألته هل حئت بكل شيء؟

– ألم أقل لك أنني لا أعرف المستحيلات؟

– ولكن الضجة..

– يبدو أن الخزانة كانت متصلة بجهاز للإنذار لم يكن لك به علم، على أن وجود الجهاز لم يغير من الأمر شيئاً، لقد وصل الأغبياء بعد فوات الوقت ولو قد رأيت ضخامة أجسامهم لعرفت سبب أبطائهم.

فأمسكت ساعده بانفعال وهتفت:

– أنني لا أكاد أصدق أذني، لقد انتهى كل شيء الآن، من ذا الذي يصدق أنني اشتركت من ارسين لوبين في مغامرة!! أرسين لوبين بلحمة وعظمة هل ثمة مانع من أن أعبر عن اغتباطي؟؟

ومدت يدها إلى زر نفير السيارة وراحت تضغطه بحركة منتظمة فأرسل نغمة موسيقية مرحة.

وابتسم لوبين.

أنه نفسه لا يكاد يصدق أن الأمر تم بهذه البساطة والسهولة.

لقد كانت ليلة سعيدة منذ البداية.

وتحول بالسيارة في انحناءه بالطريق وحينئذ رأى أمامه فجأة صفا من المصابيح الحمراء فقال وهو يضغط على فرامل السيارة:

– لم تكن هذه المصابيح هنا عندما جئنا.

وأحس بأن زميلته قد صمتت فجأة وجمدت في مكانها.

همست: ترى ما هذا؟

ولكنه هز كتفيه وأوقف السيارة على بعد ثلاثة أمتار من المصابيح الحمراء التي خيل إليه أنها مثبتة في لوخ من الخشب موضوع في عرض الطريق.

وكان الظلام دامساً فلم يتبين لوبين شيئاً وراء المصابيح ولكنه أحس بشيء معدني بارد يلتصق برأسه فتحول بسرعة، ورأى فوهة المسدس، ورجلاً يرتدى معطفاً قد وقف بجانب السيارة.

قال له الرجل في هدوء مخيف:

- لا تأت بحركة.

وأحس لوبين بحركة بجواره، فنظر من ركن عينة وإذا بالفتاة تغادر السيارة.

قالت وهي تغلق الباب:

- هنا تنتهي رحلتي أيها الغريب.

فغمغم لوبين في رفق: حسناً.

وقال الرجل الممسك بالمسدس بلهجة الأمر:

- أعطني الأوراق.

فأخرج لوبين من جيبه حزمة الأوراق وتناولتها الفتاة، واقتربت بها من مصباح السيارة وقرأت على ضوئه ما كتب على الحزمة.

وتأملها لوبين وهي تفعل ذلك وأعجب بخصلات شعرها الذهبي والنسيم يتلاعب بها.

وعادت الفتاة إلى نافذة السيارة وقالت تحدث لوبين:

– ليس لبيرت نورثويد أي شقيق يعمل أستاذاً في (تورونتو)، وليست لي صلة بأسرة نورثويد، وفيما عدا ذلك فإن كل ما ذكرته لك صحيح.

ل اشترى نورثويد هذا الاختراع من مخترع روماني شاب، ولا أعلم كم دفع له ثمناً للاختراع. ولكنه اشتراه فعلاً.

والاختراع لم يسجل إلى الآن، وأهم شيء في الاختراعات التي من هذا النوع بالنسبة إلى المصانع، أن يظل الاختراع سراً حتى يتمكن المصنع من إنتاجه قبل غيره بحيث يسبق به أي مصنع آخر، وقد كان نورثويد على وشك أن يبيع الاختراع لمصانع سيارات فورد كما قلت لك.

فسألها لوبين في فضول:

– وماذا في نيتك أن تفعلي به؟

– أن لدى عرضاً من (هنرى كايزر) صانع السيارات الأمريكي المشهور وقد قبل العرض وسأبيعه الاختراع.

قالت ذلك وسارت إلى حيث كانت اللوحة الخشبية التي شدت إليها المصابيح الحمراء فأزالتها من مكانها وأفمحت الطريق.

ثم عادت إلى لوبين ونظرت إليه بالعينين الصريحتين اللتين أعجب

بصفائهما في المطعم وقالت:

– أننا قضينا أسبوعاً في الاستعداد والتأهب لهذه المغامرة وكان في نيتنا القيام بها بأنفسنا هذه الليلة لولا أنني التقيت بك في الفندق وعرفتك من صورة نشرتها لك إحدى الصحف منذ بضع سنوات.

وكل ما حدث منذ لقائنا كان مجرد وحى جاءني عفو الساعة وبعد، هل هناك أبدع من أن يسخر الإنسان أعظم خبير في المهنة لخدمته وتحقيق أغراضه؟

فسألها لوبين: في أية صحيفة رأيت صورتي؟

– في صحيفة (الابريس) لماذا؟

– آه، كان ذلك منذ ثلاثة أعوام، أنني أهنئك لحدة ذاكرتك وقوة ملاحظتك يا آنسة.

فضحكت ضحكة هادئة تجمع بين المرح والاسي وقالت:

– أنني آسفة أيها الغريب، لقد طابت لي صحبتك كثيراً فأجابها: أنني لا أقل عنك أسفاً يا اميلي.

فصمتت لحظة، ثم انحنت إلى الإمام فجأة وطبعت على شفتيه قبلة سريعة.

وقال الرجل الآخر وهو يحرك المسدس في يده:

- امض في سبيلك ولا تتوقف.

- ألا تريدون سيارتكم؟

فضحك الرجل بخشونة وأجاب:

- أن لدينا سيارتنا، أما هذه السيارة فقد استأجرناها من أحد (الجراجات) خصيصاً لهذه المهمة، امض في سبيلك.

فأدار لوبين محرك السيارة، وصاحت الفتاة:

- وداعاً أيها الغريب.

فرد لوبين تحيتها بحركة من يده! دون أن ينظر وراءه! وانطلق بالسيارة يسابق الريح.

مهما يكن من أمر الفتاة، فأنه قد قضى معها سهرة ممتعة حافلة بالمفاجآت التي يعتبرها محور حياته! وقد كره أن يتصور ما سوف تقوله الفتاة عنه عندما تبسيط الأوراق بين يديها وتكشف أنها أوراق زائفة اصطنعها بسرعة في (الغرفة الصفراء) بينما احتفظ هو لنفسه بالتصميم لحقيقي للاختراع الخطير.

***

القسم الثاني

جواهر الملكة

جلس الرجلان في مطعم (أرنو) وبينهما قدحان من النبيذ الفاخر. كان أحدهما قصير القامة متجهم الوجه.

تنم النظرات التي يختلسها إلى زميله بين الفنية والفنية عن ريبته فيه وعدم ثقته.

كان كمن يجلس ثعباناً يخشى أن يلدغه في أية لحظة.

أما الأخير، فكان طويل القامة حاد التقاطيع لا مع العينين، بنظراته مزيج من المرح والسخرية.

قال الأول دون أن ينظر إلى جليسه:

– عجباً لك يا بارنيت، أنك تضيع الكثير من وقتك في النهاية بتوافه الأمور.

والواقع، لماذا يهتم إنسان مثلك بدارسة أنواع الأتبذة والخمور ومعرفة طريقة صنعها وخصائص كل منها. وهي مسائل لا يهتم بها غير الذين يتجرون في الخمور على نطاق واسع.

فابتسم بارنيت وأجاب.

– أن الذين يعملون في مهنتنا يا عزيزي بيشو، يشعرون أحياناً بأن هناك أشياء ينقصهم فيها العلم.

فالميدان الذي تجول فيه وتصول، لا يضم فقط جياداً تحاول الوصول إلى الهدف قبلك، وإنما تضم كذلك كلاباً تحاول أن توقع به وتقطع عليك السبيل، والعناية بمعرفة الأشياء الصغيرة قبل الكبيرة كثيراً ما تحقق لصاحبها النصر.

انظر إلى مثلاً، أنني حين أتناول هذا القدح لارفعه إلى شفتي، لا أفكر في متعة ارتشاف النبيذ بقدر ما أفكر في الأعناب الذهبية التي صنع منها، وفي الأسماء الخالدة التي اقترنت بأجود أنواع الأنبذة، أن لبعض هذه الأسماء رنيناً أعذب من أنغام الموسيقى، شمبرتاس. رومانية، كونييه، ويشبورج، فوجيو، ولا تملك كذلك من التفكير في العظماء الذي استبعدهم عصير الأعناب.

أولئك (السكارى الخالدون) كما اسماهم رابليه، من أمثال أوجست العظيم ملك سكسونيا الذي رزق بثلاثمائة وخمسة وستين ولداً بين شرعي وغير شرعي ومات من الإفراط في الشراب في احتفالاته بأعياد ميلاد أولاده، ودون كلارنسي الذي غرق في برميل خمر، كذلك لا أتمالك حين أتناول النبيذ أو أتحدث عنه من التفكير في اللآلئ التي..

فهتف المفتش بيشو:

– آه. لقد كنت حائراً لا أدري كيف أقحم موضوع اللآئى في حديثنا.

– ما أوثق الصلة بين اللآلئ والنبيذ

ألم تعلم أن اللآلئ تذوب في النبيذ؟

ألم تقرأ أن أباطرة الزمان كانوا في مباذلهم يذيبون اللآلئ في النبيذ ليثبتوا أنهم لا يقيمون وزناً للمال؟

ألم تسمع عن المأذبة الضخمة التي أُقامتها كيلوباترا لقيصر حين قدمت إليه بيدها قدحاً من الخمر أذابت فيه لؤلؤة لا تقدر بثمن.؟

إذا لم تكن قد قرأت أو سمعت عن كل هذا يا عزيزي بيشو فأنت رجل جاهل لا تصلح مفتشاً للبوليس.

فرمق بيشو صديقه وغريمه بنظرة صاعقة وأجاب:

– دعك مما قرأت وسمعت، أن ما أريد معرفته الآن هو مدى اهتمامك بجواهر الليدي أوبنهايم التي يلقبونها بملكة الماس.

– فتنهد بارنيت وأجاب:

– أنك تشعرني بالخجل من نفسي يا بيشو كلما فكرت في أني اتخذت صديقاً لا يهتم لغير الماديات الزائلة. لقد دعوتك لتتناول معاً طعاماً شهياً، وننعم معا ببضع كؤوس من جيد النبيذ، وكنا منذ لحظة نقوم بجولة شاعرين في ربوع التاريخ بين الأساطير الخالدة.

وإذا بك تهبط فجأة إلى عالم الآثم والإجرام. وتتهمني بالتدبير للحصول على لآلئ تلك الأرملة التعسة.

فقال بيشو بصوت يتم عن الارتياب:

– بل إلى سأمضى إلى أبعد من ذلك وأسألك: هل اختبارك هذا المكان لتناول الطعام كان مجرد صدفة؟

– وهل يخامرك شك في ذلك؟

لقد خيل إلى أن مكان هادئ أنيق نستطيع أن نقضى فيه وقتاً طيباً.

– ألم يقع اختيارك على هذا المكان لأنك علمت بطريقة ما أن

الليدي أوبنهايم ستحضر إليه؟

– كلا طبعاً.

– أذن فوجودها هنا الآن مجرد مصادفة!

ورفع بارنيت حاجبيه في بطء.

وقال بيشو دون أن يحول عينيه عن وجه محدثه:

– أنها خلفك إلى اليسار.

فاحتسى بارنيت قدحه في هدوء ونظر من فوق كتفه بقلة اكتراث.

فلم يكن بحاجة إلى من يرشده إلى الليدي أوبنهايم فقد نشرت لها الصحف المجلات عشرات الصور، وكتبت عن ثروتها من اللآلئ والأحجار الكريمة ما جعل صورتها تنطبع في ذهنه.

كان زوجها اللورد أوبناهيم رئيساً لاتحاد تجار الماس. وصاحب أغنى مناجم الماس في جنوب أفريقيا وقد توفى في العام الماضي وترك لزوجته ثروة طائلة من الأموال والأسهم والأحجار الكريمة ولعل أبدع ما تركه لها ذلك العقد من اللؤلؤ الوردي الذي ابتاعه من أحد مهرجانات الهند لمائة ألفاً من الجنيهات.

وكانت الليدي نحيفة الجسم بارزة العظام لها وجه كوجه الجواد

الأصيل ولم يكن بارنيت بحاجة إلى إطالة النظر نحوها لكي يعرف الكثير من خلقها وطباعها ومع ذلك فقد طالت نظرته أكثر مما ينبغي واستقرت عيناه لحظة على وجه الفتاة الفاتنة الذهبية الشعر التي كانت برفقة الليدي قال بيشو بصوت خشن:

– هه.. مار أيك؟

– جميلة جداً.

– طبعاً.. لقد قدر ثمنها بمائة ألف جنيه.

فهتف بارنيت في سذاجة:

– هل تعمني اللآلئ؟ أنني لم أنظر إليها.. نظرت إلى ابنه الليدي.

– ليس لليدي بنات، وأكبر الظن أنها إحدى صديقاتها أو مرافقاتها والآن، دعك من هذا العبث ولا تحاول أن تخدعني، أنني عندما علمت بقدوم الليدي أوبنايم، أدركت على الفور أنك لن تدعها وشأنها، ولهذا جئت لكي أحذرك أنني وضعت الليدي تحت المراقبة ٢٤ ساعة في اليوم فإذا رآك أحد رجالي تحوم حولها أو إذا حدث لعقد اللؤلؤ أي حادث فسأبادر إلى اعتقالك فوراً ولو كنت في المريخ.. تذكر هذا جيداً.

قال ذلك ونهض واقفاً وانصرف غاضباً فشيعة بارنيت ببصره حتى

توارى، وفي هذه اللحظة دعيت الليدي أوبنهايم إلى التليفون فغادرت مائدتها.. ونظر بارنيت إلى الفتاة والتقت عيونهما، وتكست الفتاة بصرها وتناولت عليه ثقاب كتبت عليها بضع كلمات بقلم أخرجته من خقيبتها.

وبعد قليل، وضعت أحد الخدم علبة الثقاب أمام بارنيت فقرأ فيها:

«٢٧ شارع ببانفيل».

«الساعة العاشرة والنصف».

وفي الموعد المحدد كان بارنيت يصعد درج سلم «المنزل رقم ٢٧ الشارع بيانفيل» وكان المنزل عتيقاً يتألف من طابق واحد، فطرق بارنيت الباب وفتحت الفتاة بنفسها فأحنى لها قامته في حركة ساخرة.

وقال في تهكم:

- طاب مساؤك.

فأجابت في هدوء:

- وطاب مساؤك.

وتقدمته إلى قاعة الاستقبال وهناك سألته:

– ماذا تشرب؟

– أريد قدحاً من الويسكي إذا سمحت.

وجاءته بما طلب فأزداد الشراب في جرعة واحدة وقال:

– أنه شراب جيد، أرى أنك مازلت كالعهد فتاة فاتنة أنيقة. أعتقد أن شيئاً واحداً فيك قد تغير، عندما رأيتك لأول مرة كنت تدعين نورثويد. فلماذا تسمين نفسك الآن؟!

– جانين روجيه وهو اسمي الحقيقي.

– اسم جميل، عندما تقابلنا أول مرة، حاولت أن تجعلني منى مخالب القط ونسيت المثل القائل (من حفر حفرة لأخيه. إلخ..).

فعضت شفتها وقالت:

– ليس لي أن أشكو. لقد بادأتك بالعدوان، وقابلتني بالمثل وهكذا ليبق بيننا حساب.

– هذا بديع، هل أفهم من ذلك أنك دعوتني إلى مقابلتك هنا لنحتفل بإبرام أم للصلح بيننا.

فاحمر وجهها قليلاً وقالت:

– عندما رأيتني مع الليدي أوبنهايم. أدركت أننا سنلتقي عادلاً

أو آجلاً. وأنني لا يجب أن أخدع نفسي، ولهذا قررت أن أكون صريح معك.

– عندما رأيتني مع الليدي اوبنهايم. أدركت أننا سنلتقي عاجلاً أو آجلاً. وأنني لا يجب أن أخدع نفسي، ولهذا قررت أن أكون صريح معك.

– هل خطر لك أنني أسعى وراء عقد اللؤلؤ؟

– إذا لم تكن قد سعيت فعلاً. فأنت بسبيل السعي الآن.

ولماذا تعترض؟ لماذا لا نعمل معاً؟

– هذه فكرة سليمة. ولكن كيف نقتسم الغنيمة؟

– مناصفة طبعاً.

– اتفقنا يا جانين. هاتي يدك وتعالى.

وأدرك بارنيت في تلك اللحظة التي لمست فيها يدها أنها تضمر له الشر والخيانة ولكنه لم يكف عن الابتسام.

سألها:

– وهل فكرت في خطة للعمل؟

فأطرقت برأسها قليلاً ثم قالت:

– لقد أتيحت لي أكثر من فرصة لفحص العقد، وتمكنت من إحصاء عدد حباته وأنا أتظاهر بالإعجاب به، وقد طلبت إلى بعضهم في امستردام بهولندا أن يصنع لي عقداً زائفاً يماثله في لونه وعدد حباته، ومتى ورد العقد الزائف فليس أيسر من استبداله بالعقد الحقيقي.

فنظر إليها بارنيت بإعجاب وسألته الفتاة:

– والآن أنبئني أنت. ماذا كانت خطتك.

– لم تكن لي خطة على الإطـلاق، لأني لم أكن أعرف الليدي أوبنهايم. ولم أفطن إلى عقدها ولم يكن لي قط أي غرض سيء. إلى أن آثار الشخص الذي كان يتناول الطعام معي فضولي وشغفي بالآلئ الفريدة. وبهذه المناسبة هل تعرفين من كان ذلك الشخص؟ أنه مفتش البوليس بيشو. وهو من أعز أصدقائي.

فصعده بعينيها وكأنها خطر لها أنه يريد الإيقاع بها ثم تلاشت مخاوفها وريبتها حين رأت نظراته البريئة. سألها:

– متى سيرد إليك العقد الزائف؟

– غداً، أو بعد غد.

ومرة أخرى أحس بارنيت بأن الفتاة تخدعه.

قال وهو يقدم لها كأسه لتملأه:

– وبمناسبة الحديث عن بيشو. أرى من الحكمة ألا يرانا معاً في الخارج.

وحانت منه التفاته إلى المطبخ وكان بابه مفتوحاً فهتف:

– خطر لي خاطر. وما دمنا لا نستطيع تناول الطعام معاً في المطاعم العامة.. فأننا نستطيع أن نتناوله معاً هنا.. سأحضر معي غداً بعض المواد، وسأطهو طعاماً شهياً.

***

وفي اليوم التالي، ذهب إليها حاملاً حقيبة مليئة بالمواد الغذائية وأشعل الموقد وبدأ في العمل.

ونظرت جانين إلى اللفائف التي أحضرها والقناني التي وضعها أمامه وسألته:

– ما هذا؟

فأجاب وهو يشير عن ساعديه:

– سأطهو لك طعاماً لم تذوقيه في حياتك أشهى منه، سأضع لك حساء على الطريقة الألمانية، حساء من ذيل الثور، مطهواً بالنبيذ الفاخر

أنه سيستغرق وقتاً طويلاً، ولكن ستعجبين به.

فقالت ضاحكة:

– سيستغرق وقتاً طويلاً! إلا نتناوله في المساء.

– أظن أننا لن نستطيع ذلك، لابد أن يظل فوق الموقد الليل بطولة، وسألحق بك ليلاً لكي أضع النبيذ بالقدر الكافي.

– ومتى ستحضر؟

– لا أعلم على وجه التحديد، حبذا لو أعطيتني مفتاحاً الشقة حتى أستطيع الدخول إذا عوقتك أعمالك عن القدوم في الوقت المناسب.

– حسناً، سأثبت لك حسن نيتي وسأعطيك مفتاحاً لشقتي.

***

وبعد ظهر ذلك اليوم، فوجئ لوبين ببيشو يزوره في مكتبه.

والقي مفتش البوليس بنفسه على أحد المقاعد وسأل صديقه:

– أرجو أن تكون قضيت وقتاً طيباً صباح اليوم.

– شكراً لك، ولكن ماذا تعنى؟

– أحسب أنني حذرتك ونصحتك بالابتعاد عن الليدي أوبنهايم.

– من قال لك أني اقتربت منها.

– أنني أعنى تلك الفتاة، جانين روجيه ماذا (تطبخ) معها؟

– أنني أصنع معها حساء من ذيل الثور.

فنظر إليه بيشو شرزا وقال:

– يجب أن تعلم أنني لا أقضى وقتي سدى، عندما رأيت تلك الفتاة بصحبة اللبدي أوبنهايم، رجعت إلى ملفات البوليس وعلمت أن ماضيها حافل، فوضعتها تحت المراقبة وعلمت أنك تتردد عليها وقد كنت في شقتها صباح اليوم.

فنظر بارنيت إلى صديقه بحدة ثم لمعت عيناه وقال:

– أن رجل في مثل مركزك يحسن به أن يحزم حقيبته فوراً ويغادر باريس إلى أن ترحل عنها الليدي أوبنهايم.

– شكراً لك على هذه النصيحة يا بيشو، سأفكر فيها جيداً، هل تستطيع تناول طعام العشاء معي الليلة؟ أنها قد تكون سهرة الوداع.

***

أطفأ بارنيت نور المطبخ وأطل داخل النافذة.. ورأى يتحرك في الظلام أمام المنزل، ثم رأه يقابل رجلاً آخر ويتحدث إليه..

كان ذلك الرجل قد تعقبه حتى وصل إلى البيت ثم تواري في الظلام

وظل يراقب البيت.. ولابد أنه كان الآن يتحدث إلى أحد زملائه.

وغادر بيشو المطبخ، وتسلل إلى قاعة الاستقبال، وأطل من نافذتها ورأى أحد رجال البوليس السري يروح ويجئ خلف البيت..

كان البيت محاصراً، وموضوعاً تحت رقابة شديدة.

ولكن لماذا؟

وحول منتصف الليل، عادت جانين وسمع بارنيت وقع أقدامها على درج السلم ثم فتح باب الشقة ودخلت الفتاة كنسمة من نسمات الربيع.

قالت له بمرح:

– هالو.. أرجو ألا تكون انتظرتني طويلاً.. فأجابها بلهجة خطيرة:

– أحكمي غلق الباب.. أن الوقت ضيق ولا يجب أن نضيع لحظة واحدة.. أن البيت محاصر، ورجال البوليس يعرفون كل شيء عنك.. لقد أنبأني بيشو بذلك، انظري من النوافذ.

وهنا بدرت من جانين حركة غير إرادية إذ أطبقت بأصابعها على حقيبتها بشدة..

ولاحظ بارنيت هذه الحركة وقال:

– أعطني هذه الحقيبة.

واشتد طرق أباب فصاح بها:

– أيتها الحمقاء. ماذا سيكون مصير بشرتك الناعمة بعد عشرة أعوام تقضينها في السجن؟

وتناول الحقيبة من يدها وقال لها:

– أذهبي وافتحي الباب.. وأسرع إلى المطبخ.

ودخل بيشو وعلى وجهه دلائل الفوز يحدث الفتاة.

– أنا مفتش البوليس بيشو.. ولابد أن يكون لوبين قد حدثك عني. جئت الآن في طلب الليدي أوبنهايم.

وفي هذه اللحظة خرج لوبين من المطبخ، ورأى بيشو في يده حقيبة جانين فقال:

– آه.. هذا يوفر علينا كثيراً من المتاعب.. معذرة.. واختطف الحقيبة وعبث بداخلها.

فقالت بارنيت:

– أن عيبك الرئيسي يا صديقي هو أنك لا تنصت جيداً لما يقال أمامك. هل تذكر حديثنا حين قلت لك أنني أطهي ذيل الثور بالنبيذ؟ ثم هل تذكر حديثي معك عن كليوباترا وكيف أنها أذابت لؤلؤة ثمينة

في قدح من النبيذ؟

أن ما فعلته كليوباترا أستطيع أن أفعل مثله.

واندفعت الفتاة نحو المطبخ وبيشو في أثرها. ولكنهما أغرقا أصابعهما في وعاء الماء دون أن يجدا أثراً للعقد.

قالت بارنيت:

– يؤسفني أن أُول لكما أن العقد تلاشي في النبيذ المغلي وربما كان من الأفضل في هذه الحالة ألا تعلم الليدي أوبنهايم أن عقدها قد استبدل، ويستطيع الصديق بيشو أن يقنعها بأن اللصة الحسناء داخلها الخوف فهربت قبل أن تستبدل العقد.

فصاحت جانيت وبيشو في وقت واحد:

– يا لك من وغد!!

***

القسم الثالث

الفصل الأول

أشعل لوبين لفافه جديدة، ثم رشف جرعة أخرى من كأس الشراب الموضوعة أمامه، ومضى يفكر في أنه إذا احتاج القضاء على الأشرار أن يلقى رجل مثله شيئاً من العناء والمضايقات.

فلا ريب أن أشدها هو اضطراره إلى الجلوس في ذلك الوكر الذي يطلقون عليه اسم (قبوكوكي) ذلك الملهى الليلي العجيب المقام في بدروم إحدى العمارات الجديدة شرقي نيويورك.

ولم يكن الشراب وحده مبعث ضيق لوبين، إذ كان مزيجاً من الماء المثلوج وقطرات طفيفة من الوسكى.. بل إنه كان ينظر إلى صفحة المحار التي قدمت إليه، فيرتد طرفه حسيراً وتتراجع يده وهي تأبى

أن تمتد إليه.. إذ كانت الصفحة مليئة بسائل غريب، تطفو على سطحه قطع صغيرة من الثلج وتسبح بينها أربع محارات هزيلة أدركت منذ أمد بعيد أن النضال في سبيل الحياة والنمو عبث في عبث..

أما ثالثة الأثافي فهي تلك الضجة العجيبة المنبعثة من فرقة الموسيقى، فيخيل إليك أن كلا من أفرادها الخمسة يعرف لحنا غير الذي يعزفه زملاءه! وتسمع من ذلك خليطاً من الأصوات المتنافرة العجيبة يزيدها قارع من الطبل ضغثاً على إبالة فتشعر من إيقاعه كأن مطرقة عنيفة تهوى على رأسك بين لحظة وأخرى.

وكان الهواء قد فسد لضيق المكان واكتظاظه بالحضور، وامتزجت فيه رائحة العطور ودخان السجاير وأنفاس المخمورين من زبائن كوكي السعداء الذين بلغت ببعضهم النشوة حدا جعلهم يجأرون بالغناء مع الموسيقى وكل منهم يترنم باللحن الذي يحسب أن الفرقة تعزفه.

أما هؤلاء الزبائن السعداء، فقد كان الرجال منهم من ذوى الوجوه الشاحبه التي رسم عليها السهر خطوطاً لا تمحى من التجاعيد، والعيون الساهمة التي تطل منها نظرات جوفاء تارة، وتشع منها ومضات من النهم والاشتهاء تارة أخرى.. على حين كانت النساء من

اللواتي يلبسن أدنى قدر من الثياب ويحتسين أوفى قدر من الشراب.. من ذوات الوجوه المصبوغة، والشعور المتهدلة والعيون الناعسة الذابلة..

وفي ذلك الجو الغريب جلس لوبين بمفرده في صبر وحلم لا ينفدان، إلى المائدة التي اختارها لنفسه، وقد غفل عن أن العميل الذي لا يجالس فتاة، ولا يطلب زجاجة من الشمبانيا، ثم يحتل المائدة بمفرده، ليس بالذي تنظر إليه إدارة الملهي نظرة رضا أو ترحيب ببقائه طويلاً ولذلك لم يلبث أن تقدم إليه الساقي وهو رجل شديد النحول، ارتسمت في محياه سمة ثابتة من الاكتئاب قائلاً:

– هل يريد السيد شيئاً آخر؟

فمد لوبين ساقيه إلى أقصى ما يسمح به المكان وهش في وجه الساقي قائلاً:

– كلا.. ولكن دع لي عنوانك حتى إذا أردت شيئاً آخر أرسلت إليك رقعة بالبريد.

فحدجه الساقي بنظرة يتطاير منها الشرر.. ولكن نظرته ارتطمت بمنكبي لوبين العريضين وعضلاته المفتولة، وعينيه الساخرتين اللتين يبدو في زرقتهما الصافية وميض كحد النصل، وأساريره المتناسقة التي تنم على أن

صاحبها ممن يعدون النضال والعراك من الفنون الجميلة.. وعندئذ استلانت نظرات الساقي فيها الدعة والاستكانة، وقنع من الغنيمة بالإياب..

وما كان لوبين بالذي يحتمل كل هذه المضايقات لغير سبب فورى.. وما كان ليصير في جلد على البقاء في ذلك الوكر الذي لم يسمع باسمه قط من قبل، إلا لأن صديقه هاملتون مدير مكتب المخدرات العام تحدث إليه تليفونياً من واشنطون منذ بضعة أيام وذكر له شيئاً عنه..

واستجمع الساقي شجاعته بعد برهة وعاد بوجهه الكئيب قائلاً:

– هل ينتظر السيد أحداً؟..

– نعم.. أنتظر كوكي.. فمتى تؤدى دورها؟

– إنها لا تغني في وقت محدد، وإنما تبكر أحياناً وتتأخر أحياناً أخرى.

– حسناً.. سوف أنتظرها.

ولم تبق في الملهى مائدة خالية، ووقف كبير السقاة عند المدخل يعتذر لبعض القادمين وهو يشير بيده إشارة القاعة كلها، كأنما يريهم أنها مليئة بالرواد.. فلم يفت ذلك المنظر لوبين، كما لم يغب عن نظرات الساقي الكئيب، فتقدم نحو لوبين قائلاً في استكانة:

– هل يريد السيد قائمة حسابه؟

وشفع ذلك بأن وضعها أمامه، ولكن لوبين هز رأسه في تبلد وقال:

- كلا.. ليس قبل أن أسمع كوكي.. فكيف يمكنني أن أواجه أصدقائي بأنديانا عندما أعود إلى بلدتي وأعترف بأنني كنت في نيويورك وذهبت إلى قبو كوكي دون أن أسمع غناءها؟.. وكيف..

فقاطعه الساقي:

- ولكنها ربما تأخرت كثيراً..

- أعلم ذلك.. ألم تخبرني به من قبل؟

- حسناً.. إنها تقضي معظم الوقت في المقصف الذي أنشأته للبحارة حيث تقدم لهم الطعام والشراب..

ثم أردف بلهجة ذات مغزى وهو يدقق النظر في لوبين.

- مجاناً..!!

- يا له من عمل نبيل! هل لك أن تذكرني بأن أغدو بحاراً عندما أبعث من جديد!

- ماذا؟

- إنني أرى الأنوار الكاشفة قد أضيئت، فهل هي كوكي؟

- كلا.. قلت لك إنها تحضر متأخرة!

– حسناً.. لابد أنها في الطريق الآن.. هل لك أن تنحرف إلى اليسار حتى يمكنني أن أرى المسرح؟

فرفع الساقي وجهه إلى السماء كأنما يستلهمها الصبر، ثم انسحب في يأس.. على حين أعلن مدير المسرح في الميكروفون ظهور المغنية الجميلة مس أفالون دكستر..

وكان لوبين يتوقع أن يرى ويسمع واحدة من تلك (النمر) الثانوية التي تقدمها الملاهي بين أدوار الرقص وبين النجمة الأولى لتملأ الفراغ.. ولكنه وجد نفسه ينظر ويصغى في إمعان إلى تلك الفتاة البارعة الحسن التي تقف وسط دائرة الضوء وهي تشدو في صوت رخيم مؤثر وقد تهدل شعرها الذهبي فوق كتفيها، على حين تدلت منه خصلة كبيرة فوق عينين واسعتين عسليتين تشعان سحراً وفتنة..

ومضت الفتاة تغني أنشودة ثانية ثم ثالثة وسط عاصفة من التصفيق والهتاف وصياح الحضور باستعادة ما تغنيه حتى انسحبت أخيراً وخلفت لوبين في عجب وحيرة من الأثر الذي تركته في نفسه بجمالها ورخيم شدوها.. فما كان يتوقع أن يجد شيئاً كهذا في (قبو كوكي) الذي حضر إليه ليرى شيئاً معيناً.. وقد رآه!.

ولم يفق من ذهوله إلا عندما سمع المذيع في الميكرفون يقول:

– والآن أيها السادة والسيدات، نقدم لكم السيدة التي كنتم جميعاً في انتظارها فاعتدل في مجلسه، إّ أدرك أنه على وشك أن يرى كوكي.

***

وكانت كوكي قد نهضت من مائدة مجاورة للمسرح فارتقت الدرج المؤدى إليه ولم يملك لوبين نفسه من الابتسام إذ كانت حركتها هذه أشبه ببروز فرس البحر (سيد قشطة) من بركة عميقة.

وعاد لوبين ينظر ثانية إلى المائدة التي كان قد رآها من قبل بنظرة عابرة دون أن يعرف كوكي نفسها، إذ حرص الساقي الخبيث على كتمان هذه الحقيقة عنه، وقد استرعى أنظاره الشخصان اللذان كانا يجلسان معها.. وكانا رجلا وامرأة..

كان أبرزهما أنوثة، ذلك الذي يرتدى سراويل الرجل، شخصاً يدعى فرديناند بير فيلد، ذا وجه أشبه بوجه فتاة دقيق الملامح غض البشرة تعلوه خصلة من الشعر الذهبي تحتها حاجبان دقيقان أجاد الملقط رسمهما فاستدارا فوق عينين زرقاوين ذواتا أهداب كستنائية طويلة، وأنف روماني دقيق، وفم مستقيم رقيق الشفتين تبدو حمرتهما القانية كأنما صقلتا بالطلاء للتو..

أجل.. فقد كان مستر بير فيلد.. فناناً..

أما رفيقته فكانت امرأة ذات شعر خشن كالأسلاك المسدودة، وعينين يبدو فيهما الظمأ واللهفة، وشفتين برتقاليتي اللون.. عرف لوبين أنها تدعى كاي ناتيللو، وأنها تقرض الشعر..

وجولت أنظار لوبين إلى كوكي ثانية، فهي التي تهمه أكثر من غيرها إذا كان ثمة أساس لما سمعه عنها وجعله يدرك بأنه سوف تلعب دوراً في حياته..

كانت تجلس إلى المعزف تمر عليه بأصابعها في انتظار هدوء عاصفة الهتاف والتصفيق التي استقبلت بها، وعلى وجهها المكتنز ابتسامة عريضة..

أجل.. فإن كوكي لم تكن تقل عن مائتي وخمسين رطل في الوزن، يبدو وجهها كطبل كبير نقشت عليه عينان وأنف وشفتان..

ولكن الذي أثار عجب لوبين إنما هو مرأى يديها تضعهما أمامها على المعزف فهما لا تشبهان أيدي النساء قط، وإنما كانتا عريضتين طويلتي الأصابع أقرب إلى أيدي أقوياء الرجال، بحيث خيل إلى لوبين أنهما يدي أحد عمال المناجم، أو المصارعين، أو يدي قاتل عريق اعتاد الخنق بهما..

ولقد أحس لوبين نحوها نفوراً شديداً لعل بعضه يرجع إلى تناقض الأثر أحدثه في نفسه مرآها بعد افالون ديسكتر، ولكنه أيقن أمامه امرأة شريرة لا تقل خطراً عمن قاتلهم من أشرار الرجال.

***

وعلى الرغم من ذلك ظل محتفظاً بهدوئه وبسمة البراءة التي تكسو أسارير وجهه وهو يرقبها عندما أدنت فمها من الميكروفون الموضوع أمامها وراحت تقول في صوت عميق مسيطر.

– طاب مساؤكم أيها الأصدقاء.. إنني آسفة حقاً إذ تأخرت قليلاً، ولعلني كنت أعنى ببعض أولادنا الذين تمر بهم محنة قاسية.. أعنى أولئك الأبطال الذين يعملون في سفننا وقوافلنا، ويختارون أشد الأخطار في الحرب والسلم على السواء..رجال البحرية التجارية..

واستطردت كوكي وهي تشير بيدها عبر القاعة:

– وأني أحب بهذه المناسبة أن تحيوا اثنين من أشجع الأبطال الذين مخروا عباب البحار السبعة.. باتريك هوجان، واكسيل اندرمير..

وتحول الضوء الكاشف نحو شابين يجلسان إلى مائدة جانبية، فنهضا في حياء وتكلف ليردا تحية الجمهور على حين ارتد الضوء ثانية إلى كوكي وكانت على أساريرها ابتسامة عريضة كأنما يرجع إليها

الفضل في عودة القافلة سالمة إلى الوطن..

وتابعت حديثها في الميكروفون قائلة: وتقديراً لضيفينا العزيزين، سوف نبدأ بأغنية الملاح الأعزب كهل!..

***

وقد كان يكفى لوبين أن يسمع المقاطع الثلاثة الأولى منها ليدرك أنها من الأغاني المبتذلة التي تنتفي كلماتها في مهارة بالغة لتحتمل وجهين من المعاني أدناهما إلى الفهم يرمى إلى تنشيط الرجال وإثارة غرائزهم..

وما من عجب بعد ذلك أن تلقى كوكي كل هذا النجاح، وتقابل أغنيتها بالتصفيق والهتاف وصيحات الجمهور يطلب الاستعادة..

وازداد أرسين لوبين مقتاً لها وحقداً عليها..

وتضاعف هذا المقت عندما تبين مبلغ ما أفسدته من روعة غناء أفالون دكستر وجميل شدوها..

وعندئذ سمع الساقي الكثيب يقول بغتة: لقد أحضرت لك كأساً مزدوجة يا سيدي.. فهل يرضيك ذلك؟..

- بلا ريب.. فهذا ما كنت أنتظره طول المساء..

وتذوق لوبين ذلك الأثر الذي كان في قاع الكأس، فوجد له طعم الويسكي الأسكتلندي، ومن ثم أبقاه فوق لسانه في احترام وتبجيل وهو يضن بأن يزدرد ريقه ثم راح يجيل نظراته حواليه وهو يدعو الله أن يرى أفالون دكستر في ركن من القاعة.

وكأن من حسن حظه أن رآها!

ولا ريب أنها تسللت إلى القاعة من باب خفي.. ففي تلك اللحظة بالذات كانت تنحني إلى الإمام لتجلس، عندما مر بها طرف شعاع الضوء، فلمح لوبين رأسها..

ولكنه كان أشد اهتماماً بالمائدة التي جلست إليها.. فقد كانت قريبة منه، كما كانت هي المائدة التي ظل يوليها اهتمامه منذ أن اختار مجلسه بالقرب منها.. فهي مائدة الرجل الذي جاء لوبين إلى (قبو كوكي) خصيصاً ليراه.

ولذلك كانت دهشته بالغة عندما رأى أفالون دكستر تجلس مع الدكتور أرنست زلرمان.

ولم يكن لديه- بعد- ما يأخذه على الدكتور زلرمان.. فالرجل طبيب نفساني يحمل أجازات علمية قانونية، ويتخذ عيادته في بارك أفنيو، ويكثر من الظهور في أرقى المجتمعات، وينتقى عملاءه من أرفع الطبقات قدراً.. كما لم يكن لوبين يأخذ عليه بالمثل أنه فارع الطول

منتصب القامة، مهيب الطلعة، اشتعل رأسه شيباً قبل الأوان، ذو وجه ناعم البشرة، وفم رقيق الشفتين، وأنف دقيق أرستقراطي، وحاجبين كثيفين حالكي السواد، وعينين عميقتين ثاقبتي النظرات غارتا قليلاً بين وجنتيه البارزتين.. كلا.. لم يكن لوبين يأخذ عليه شيئاً من ذلك كله بينما كان يرقبه من طرف خفي وهو يجلس وحيداً إلى مائدته كما يفعل هو.. وإنما كانت لديه أسباب أخرى تدفعه إلى بغض الدكتور زلرمان، والحنق عليه.. منها ما سمعه من صديقه هاملتون عندما خاطبه تليفونياً من واشنجتون، ومنها ما عرفه من تحرياته الخاصة.. فقد كان سلوك الطبيب النفساني معيباً، لا يتفق ومكانته الاجتماعية، إذ كان زير نساء لا يتورع عن غشيان دور اللهو مثل (قبو كوكي)، وعندئذ تراه يجالس الفتيات ويداعبهن ويهمس في أذانهن ويربت بيده الرقيقة على أكتافهن وظهورهن العارية..

ومن ثم اضطرم حقد لوبين عندما رأى أفالون دكستر تجالس هذا الطبيب المتهم دون رواد الملهى جميعاً.. ونسى كوكي وأغنيتها، ولم يعد يهتم لشيء إلا مراقبة الدكتور زلرمان وترقب مسلكه مع الفتاة.. وقد دهش لوبين حقاً لشعوره هذا، فما الذي يعنيه من تحبب الطبيب إلى المغنية؟.. وما أدراه أنها سوف تستجيب لمداعباته وهمساته، ولكنه كان

قد أعجب بالفتاة، وبمظاهر البراءة التي ترتسم في أساريرها، فنهشت الغير فؤاده..

***

وكان يتقلب على جمر وهو يراها تدفع مخالب الطبيب مرة بعد الأخرى عن ذراعيها وكتفيها، أو عندما دفعت رأسها إلى الخلف في نفور واشمئزاز استنكاراً لأمر لا ريب أن زلرمان كان يهمس به في أذنها..

ولم يعد لوبين يتمنى إلا أن تتاح له الفرصة ليظهر استنكاره لمسلك الطبيب الشيخ المتصابي، ونفوره من أعماله جميعاً..

وقد أتيحت له تلك الفرصة..

فبينما كانت كوكي في ذروة أغنيتها الرقيقة، رأى لوبين يد أفالون دكستر ترتفع ثم تهوى في صفعة مدوية على وجه الطبيب الوقور.. صفعة لم يسمعها أحد في الملهي إذ ضاعت وسط الهتاف والتصفيق، ولم يرها سوى لوبين الذي كان منصرفاً بكلتيه إلى الطبيب ورفيقته.. كما رأى الفتاة تنهض غاضبة وزلرمان يمسك بها من ذراعها في قوة ويعيدها إلى مقعدها قسراً..

وعندئذ تمطى لوبين، ونهض في هدوء، فشق طريقه وسدد الموائد، خطى خفيفة كالفهد.. ولم يبال بانتهاء كوكي من أغنيتها، ولا بإضاءة

الأنوار في القاعة، ولم يكترث بالأنظار التي سوف تتجه نحوه.. فقد تسلطت عليه فكرة واحدة، هي التي مضى لتنفيذها..

وفي حركات وليدة، اتجه لوبين نحو الدكتور زلرمان، وأمسك بتلابيبه، فرفعه من مقعده، والرجل يحملق النظر إليه دهشة، بينما كان لوبين يقول:

– ما كان ينبغي لك أن تفعل شيئاً كهذا!..

فراح الدكتور زلرمان يحدق النظر إلى العينين الزرقاوين اللتين تبدو فيهما لمحة غريبة من السخرية والتهكم واستولى عليه ذعر مباغت ظهر أثره في الحركة التي جذب بها نفسه من قبضة لوبين وهو يستدير ناحيته.. ولكن لوبين صوب إلى وجهه لكمة هائلة أصابته فوق عينيه وشفعها بأخرى استقرت فوق فمه، وإذا بالدكتور زلرمان يتهاوى فوق مقعده وسط رنين الأواني وصوت الزجاج المحطم، عندما انقلبت المائدة، بينما كان يحاول التشبث بها..

ووقف لوبين أمامه يحدجه بنظرة قاسية، قائلاً:

– حسناً.. لعل في هذا درساً ينفعك!

الفصل الثاني

ران الصمت العميق لحظة في القاعة، بما لا يحدث قط في ملهى كهذا أثناء ساعات العمل، وما لبثت الضجة أن انبعثت من جديد، إذ اندفع الحضور واقفين بغتة، ليحسنوا الرؤية.

وارتفع صوت سقوط المقاعد، وهرع السقاة والخدم إلى المكان الذي نشب فيه العراك.

ولكن لوبين لم يعبأ بشيء من ذلك، كأنه لم يشهر بما أثاره في القاعة، والتفت نحو أفالون دكستر قائلاً:

– إنني لشديد الأسف.. وأرجو ألا يكون ثوبك قد سقط عليه شيء..

فرمقته غير مستقرة، كانت فيها ومضة من الدهشة الممزوجة بالرضا، تخالطها لمحة من الخوف والقلق وما لبثت أن افترت شفتاها في غبطة وغمغمت:

- شكراً لك..

وفي تلك اللحظة كانت الحملة التأديبية قد وصلت إلى المكان الذي يقف فيه الثائر، ممثلة في شخص كبير السقاة العريض المنكبين المفتول الذراعين الذي أمسك بذراع لوبين قائلاً في خشونة:

- ما هذه الضجة كلها؟

فأجابه في مرح.

- لقد كنت أدرب صديقي هذا على رقصة جديدة.. فهل تحب أن أعلمك إياها، أم تدع ذراعي؟

وأحس الرجل بعضلات لوبين الفولاذية تختلج تحت يده، كما رأى نظراته الهادئة تحدجه في صرامة، فتردد قليلاً.. وعندئذ قالت أفالون:

- لا بأس ياجو.. دعه..

وخلص لوبين ذراعه في رفق وهو يخرج علبة لفافاته، ثم راح يتفرس في الدكتور زلرمان في تلذذ ومرح، وهو يجاهد في التخلص من غطاء المائدة التي التف حوله أثناء سقوطه.. واستطرد لوبين:

- ومن سوء الحظ أن صديقي لم يستغرق وقتاً طويلاً في التدريب، فسقط وأصاب وجهه.. وهي حوادث كثيرة الوقوع كما تعلم..

ونهض الدكتور زلرمان على قدميه بمعاونة أحد السقاة، وقد تورمت عينه، وانساب خيط من الدماء من فمه، فراح يتحدث في غير وعي إلى لوبين وعنه، كشخص أصابه مس من الجنون، ولم يكف عن هذيانه حتى قدمت كوكي نفسها وشقت لنفسها طريقاً وسط حلقة المحتشدين..

وما كان لوبين يتوقع أن تكون على هذه المدمامة بعد أن غاضت ابتسامتها التقليدية وبدأ وجهها صارماً عبوساً كما تألفت غضباً في نظرات باردة كأنها عينا أفعى شديدة الضراوة وهي تقول لزلرمان:

– ما الذي حدث؟

فانطلق الطبيب صاحباً وهو يضغط على كلماته ضغطاً شديداً:

– لقد اعتدى على هذا الوغد الوقح لغير سبب البتة.. فقاطعه لوبين قائلاً:

– أو لسبب يسير، هي أنني رأيتك تجذب مس دكستر من ذراعها في خشونة..

– لأنها صفعتني..

– ولقد أحسنت في ذلك.. فإنني رأيت ما كنت تفعله معها..

فراحت كوكي تنقل نظراتها من وجه لآخر، حتى استقرت على

الفتاة قائلة:

– لقد فهمت.. ما الذي شربته الليلة يا أفالون؟

فتدخل لوبين قائلاً:

– الواقع يا كوكي أن المرء إذا أراد أن يثمل من المشروبات التي تقدمينها هنا، لوجب أن يظل يشرب حتى الصباح..

– ومن الذي دعاك إلى الحضور؟

ثم عادت تقول الفتاة:

– أحب أن أعلم بحق الشيطان كيف جرؤت على إهانة زبائني؟.

وتدخل لوبين مرة أخرى مد رأى الابتسامة الخفيفة تفيض على شفتي الفتاة:

– إنه هو الذي أخانا أولاً يا كوكي..

فصاح زلرمان: أيها الكاذب القذر!

ولكن لوبين استطرد في هدوء:

– وبذلك دفعها إلى صفعه.. فقد رأيت بنفسي ما حدث كله.. ولست أدرى لماذا لا تأمري بطرده من المكان، حتى يمكننا الاستمرار في بقية البرنامج؟..

فحدجته كوكي بنظرة وقالت:

– لا تتدخل في شئون غيرك من فضلك..

ثم استدارت نحو الفتاة قائلة:

– أيتها الحمقاء السكري! لقد ضقت ذرعاً بسخافاتك وأغنيتك الكريهة..

فلم تنتظر أفالون بقية ما تريد المرأة أن تقوله، وإنما توهجت عيناها من فرط الغضب وصاحب:

– بل لقد ضقت أنا ذرعاً بهذا الوكر اللعين الذي تديرينه ويمكنك أن تذهبي وعملك إلى الشيطان!.

ثم استدارت في عنف وأسرعت خارجة، وعندئذ ران على المكان كله صمت عميق كما حدث أول مرة..

وواجهته كوكي لحظة، ثم قالت:

– من أنت بحق الشيطان؟

– أسمي أرسين لوبين..

قالها في بساطة ورفق كما ينطق بأي اسم عادي.. ومع ذلك فقد كان لهاتين الكلمتين من الأثر ما يفوق السحر، إذ تراجع كبير السقاة

العملاق إلى الوراء خطوة وهو يغمغم؛ «يا إلهي!».. بينما جمدت يد الدكتور زلرمان التي كان يمسح بها الدماء المنسابة من ركن فمه، وظل على هذا الوضع لا يحير حراكاً.. على حين سكنت كوكي في مكانها وقد شلت حركتها ولم يتغير فيها سوى نظراتها إذ خالطتها لمحة من القلق والاضطراب.

وأردف لوبين قائلاً:

– وأنه ليسرني أن قابلتكم جميعاً الليلة.. ولكني أحب الآن أن أدفع حسابي وأخرج إلى الهواء الطلق..

وما كاد يتم عبارته حتى كان الساقي الكئيب يمد إليه يده بقائمة الحساب..

ولكن كوكي بدأت تقول في صوت يسيل رقة وتوددا:

– مهلا لحظة يا مستر لوبين.. فمثل هذه الأشياء تحدث كثيراً في النوادي الليلية، وكلنا يعلم ذلك.. وقصدت البتة أن أسيء إليك، ولكنى كنت شديدة الانفعال مما حدث. فهلا جلست وتناولت معي كأساً من الشراب؟

فأجابها في هدوء:

– كلا، شكراً.. لقد تناولت الليلة من شرابك ما فيه الكفاية!

ثم أخرج من جيبه ورقة مالية ألقى بها إلى الساقي في حركة تنم عن أنه لا يريد بقيتها بينما كانت كوكي تقول: لا ريب أنك كنت تعتقد صواب ما فعلته، وأنك لو علمت يا مستر لوبين أي عناء ألقاه من تلك الحمقاء الصغيرة، فإني واثقة..

– بل إنني واثق تماماً من أن أفالون على حق، وسوف يكون لي شأن مع الدكتور زلرمان يوماً من الأيام..

ثم استدار على عقبيه، ومضى يجتاز القاعة بخطواته الطويلة وقد بدأ عليه الضيق والملل من المكان، كما كان يود بكل جوارحه أن يلحق بالفتاة في الطريق قبل أن تختفي عن الأنظار. وكان يعبر الباب عندما التقى بفردیناند بيرفيلد في طريقه إلى المغسل، فأمسك بيده قائلاً في مرح:

– ألا ترى يا عزيزي فردي إن طلاء الأظافر الذي تستعمله لا يلائم بشرتك؟ حبذا لو استطعت طلاء بنفسجي اللون..

فتململ مستر بيرفيلد وجذب يده الرقيقة وهو يغمغم: آه!.. أنت!

فترك لوبين يده وأسرع إلى الرطريق..

– وكانت أفالون واقفة على الإفريز تتحدث مع حارس المبنى وهو يمسك لها باب السيارة التي كانت تستقلها عندما خرج لوبين من

الملهى.. وقبل أن يستطيع الحارس إيصاد الباب كان لوبين يصعد إلى السيارة ويجلس إلى جانب الفتاة ورأى الحارس أنها لم تعترض، فأوصد الباب ومضى وشأنه..

وراحت الفتاة تنظر إليه في صمت..

وكان لوبين يتأملها وعلى شفتيه ابتسامة رقيقة..

وأخيراً قالت:

– طاب صباحك.. أخشى أن أكون قد أفسدت عليك سهرتك..

– بل إنني الملوم.. وقد لحقت بك إذ ظننت أنه يحسن بي أن أقدم لك كأساً من الشراب في مكان آخر لنزيل طعم ذلك الشراب الكريه من أفواهنا..

– شكراً.. ولكني رأيت الليلة ما يكفى من ملهى ليلى واحد..

فتردد لوبين لحظة ثم قال:

– هل تسمحين إذن بأن أصحبك حتى مسكنك؟

فتفرست فيه بعينيها البريئتين برهة، قبل أن تقول:

– بل ريب، هيا بنا.

ثم ذكرت للسائق عنوانها بميدان ستون.. فما كادت السيارة تدرج

بهما حتى سألها لوبين في اهتمام:

– أو تقطنين هناك؟.. لا ريب أنك تربحين كثيراً..

– إن المسكن الذي أقطنه ليس مرتفع الأجر. كما أنني اشتغل بانتظام.

– أرجو ألا أكون قد تسببت في تركك لعملك.؟

– آه!.. لا.. سوف أحصل سريعاً على عمل آخر..

ثم إنني كنت أتوق إلى شيء من التغيير على كل حال، وكان ينبغي أن أترك كوكي عاجلاً أو أجلاً..

وعادت ترمقه بنظراتها في دهشة بالغة، وأردفت:

– ولكنك لم تخبرني من أنت!..

– اسمي أرسين لوبين!..

فانتفضت الفتاة، وغمغمت:

– آه!.. كان ينبغي أن أدرك ذلك. فما من أحد يجرؤ على فعل ما فعلت ولكن هل عرفوك؟

– لقد أخبرتهم باسمي..

– شد ما وددت أن أرى وجه كوكي وقتئذ.

– كانت أشبه بضفدعة تلقى حوتا..

فقهقهت الفتاة في جذل.. ثم راحا يتحدثان حتى بلغت بهما السيارة مسكنها، فقالت وهو يعينها على الهبوط.

– هل أتيت لحظة، فأقدم لك كأساً من الشراب الحقيقي؟

– هذا ما أشعر بحاجتي إليه حقاً!

ثم سار بجوارها في بساطة كأنهما قد تعارفا من عشرات السنين، لا منذ ساعات.

***

كانت حجرة الجلوس فسيحة هادئة ذات أثاث وثير، بها خزانة للكتب وجهاز للراديو ومعزف صغير، تطل نوافذها على حديقة كبيرة متصلة بالنهر.

وما كان لوبين يلجها حتى أحس بالهدوء والدعة، خصوصاً وأن ضوضاء الطريق لا تصل إليها وكأنهما قد خلفا المدينة وراءهما بمئات الأميال.

ومضت أفالون تعد الشراب، فهب لوبين إلى خزانة الكتب وراح يقلب في محتوياتها فألفاها تحوى مجموعة من كتب الأدب الرفيع لأشهر المؤلفين العالميين أمثال برناردشو وأميل لودفيج وأمثالهما.

فلما عادت قال لها:

– يبدو أنك تحبين القراءة.

– ينبغي أن أغذى عقلي بين آونة وأخرى.. وربما كنت من مغنيات النوادي الليلية، ولكني درست بمدرسة سميث وتأتى شهادتي من جامعة كاليفورنيا، ولذا لا حيلة لي في الأمر إذا شعرت أحياناً بالحاجة إلى القراءة والابتعاد بفكري عن هذه الأوكار.

فابتسم لوبين وقال:

– إنني أدرك ما تعنينه تماماً.

ومضى إلى المعزف، فوضع كأسه فوقه ثم جلس أمامه وراح يداعب الأوتار بأصابعه في لين.

وكف عن العزف فجأة، وتناول كأسه، ثم مضى إلى حيث كانت أفالون جالسة فوق الأريكة فجلس بجوارها وسألها:

– ما الذي تعرفينه عن زلرمان؟

– لست أعرف عنه الكثير.. فهو طبيب يقطن بارك أفنيو ويقال إنه نمسوي فر من فينا قبل أن يحتلها النازيون بقليل لاجئاً إلى أمريكا.. ولكنه لم يفقد شيئاً من ثروته أثناء فراره.. كما أنه يربح كثيراً هنا.. ولم

أذهب إلى عيادته قط، ولكن يقال إنها أشبه بأحد معارض هوليود، كما أن سجل عملائه، ومواعيد زياراتهم أشبه بسجل التشريفات بالبيت الأبيض، لا يحوى إلا الأسماء اللامعة الرنانة.. ولديه ممرضة شقراء لاستقبال الزوار ربما كانت مهمتها أن تزيد الاضطرابات النفسية للذكور منهم، قبل أن يبدأوا العلاج، حتى يطول أمده ثم إن له مصحة خاصة في ولاية كونيتكت، يقال إنها من أحسن المصحات وأفخمها في الولايات المتحدة، يلجأ إليها العظماء من المرضى ليتخلصوا من قيود المجتمع والتقاليد فيصنعوا ما يطيب لهم أن يصنعوه ثم يؤدوا بعد ذلك أي ثمن يطلب إليهم أداؤه.

– أتعنين أنهم إذا طلب تمزيق ثياب إحدى الممرضات أو سكب الحساء فوق رأس أحد الخدم، فعلوا بغير حرج، مقابل ثمن معين؟

– إنه شيء كهذا فيما يخيل إلى.. ويقول الدكتور زلرمان إن معظم الاضطرابات العقلية والنفسية تنشأ من كبت بعض الناس رغباتهم الشخصية، مضطرين إلى هذا الكبت بحكم التقاليد التي يخضعون لها.. ومن ثم فإن الطريقة المثلى لعلاجهم هي إبعادهم عن هذه التقاليد ورفع الحظر عنهم لصنع ما يشتهون.. فإذا ما أطاعوا غرائزهم ووحي

نفوسهم، وأشبعوا موطن الضعف من عقولهم، استطاعوا بعد ذلك بدء حياتهم من جديد، وشفوا من أمراضهم.

ابتسم لوبين قائلاً: يبدو أنه لا يكبت رغباته الشخصية كما رأيت الليلة!

فهزت الفتاة كتفيها في غير اكتراث، وقالت:

– إنك تلقى أمثال هذه الزواحف في النوادي الليلية دائما وكان ينبغي أن أجاريه وأن أكظم غضبي.. ولكن يا للجحيم لم يكن في وسعي أن أصبر أكثر مما صبرت.

– لا ريب أنك قابلته من قبل؟

– طبعاً.. فإنه يرتاد الملهي دائما.. وقد قدمته لي كوكي نفسها فهو أحد المقربين إليها.

– هكذا فهمت.. ولكن هل تحبه، أم أنه يعالجها؟.. في رأيي أن التوغل إلى أعماق أفكارها ونفسيتها، قد يؤدى إلى نتيجة مثمرة.

– تماماً.. ولكني لن أفعل ذلك إلا إذا كنت مزوده بوسائل الدفاع.

فقهقه لوبين وقال:

– إنها أشبه بذئبة ضارية، أليس كذلك؟

– تماماً.. ومع ذلك فإن الناس يحبونها..

– ربما كان الأمر كذلك.. ولكنها أوحت إلى بشعور عجيب لا أدري كنهه.. ومنذ أن رأيتها أحسست بأنها أول امرأة! ألتقي بها فأشعر بأنها ملأي بالشر والرذيلة.

– لعلك على حق.. فهي امرأة مخيفة.

– وإني لا تخيلها تحمل السوط في يدها في أحد مراكز الرقيق الأبيض.. أو تشرف على ملجأ للأطفال لتخنقهم واحداً بعد الآخر وتدفنهم في الفناء الخلفي.

فضحكت أفالون ملء شدقيها، وقالت:

– ربما لم تكن مخطئاً.. فلم تظهر في المدينة إلا منذ سنتين، ولا يعرف أحد على وجه التحقيق ما كانت تفعله من قبل.. لعلها كانت كما تقول قبل أن تجد وسيلة أخرى لكسب المال أسلم عاقبة وأكثر أمناً..

فعبس لوبين قليلاً، وقال:

– ومع ذلك فقد أخبرني الساقي عن ذلك المقصف الخيري الذي أنشأته للبحارة.

– تعنى «مقصف كوكي»؟ نعم.. إنه أحد مبتكراتها الأخيرة.

– هل هو أحد فروع إدارة الترفيه التي تشرف عليها الحكومة؟

– كلا.. كلا.. إنها مؤسسة قائمة بذاتها تنفق عليها كوكي من مالها الخاص، وتقدم فيها القهوة والشطائر والحلوي للبحارة، كما أعدت بعض الفتيات لخدمتهم والقيام على راحتهم..

– هل ذهبت إلى هناك؟

– لقد غنيت هناك مرتين أو ثلاثاً.. وهو في الشارع الخمسين بالقرب من الأفنيو التاسع.

– هل أفهم من ذلك أنها لا تربح شيئاً من هذا المقصف؟

أتراها تحب الخير لذاته أم أنها وسيلة للإعلان عن نفسها أم لها ولع خاص بهؤلاء الفتيان الشجعان الذين يركبون الأخطار؟

– ربما كانت هذه الأسباب جميعاً مجتمعة.. أو لعل ركناً في ضميرها قد استيقظ أخيراً فأحبت أن تكفر عن بعض سيئاتها.. ومهما يكن من أمر فإنني شديدة الابتهاج لخلاصي منها الليلة.. هلا ملأت كاسينا؟

فمضى لوبين إلى حيث كانت زجاجة الشراب فوق الخوان وراح يصب منها في الكأسين ويمزجهما بالصودا.. وفي أثناء ذلك كان يحس بأن حظه قد أشرق عليه الليلة نجم ساطع بزغ فجأة.. فقد راح يلقى أسئلة بريئة المظهر وعلم أشياء كثيرة بالغة الأهمية خلال ساعات

معدودات.. وكان المقصف الذي أنشأته كوكي للبحارة هو المحور الذي تدور حوله أفكاره الآن وبوده أن فهم السر في هذه الأريحية الغريبة.. وبدأ له أنه قد مضى إلى أكثر من الخطوة الأولى في سبيل اقتفاء الأثر الغامض الذي كان يحاول تتبعه.

وعاد بالشراب إلى الأريكة واتخذ مجلسه ثانية وبدأ يخرج لفافة من علبته عندما قالت الفتاة:

شد ما أعجب مما جاء بك إلى وكر كهذا في هذه الليلة!..

– إنه الفضول، والحظ السعيد معاً.. فقد كنت مع بعض الأصدقاء ولم ترق لي صحبتهم، فتخلصت منهم وشعرت بالحاجة إلى كأس من الشراب.. ووجد نفسي وقتئذ أمام الباب، فدخلت.. وكان من حسن طالعي أن رأيتك!

وكان يكذب عليها.. ولكن هل في وسعه أن يصدقها القول في حقيقة السبب الذي جاء إلى «قبو كوكي» من أجله؟..

واستطرد:

– وعندئذ سمعتك تغنين..

– وهل أعجبك غنائي؟

– لقد كان سحر هاروت!

– هل تعلم أنني رأيتك قبل أن أبدأ، فرحت أغنى من أجلك؟..

فأشعل لفافته وهو يختلس إليها النظر خلال ومضات الثقاب ثم قال:

– لم أكن أعلم أنني ألفت النظر إلى هذا الحد!

– أخشى أن تكون كذلك..

– لو علمت حقيقتي لما أحببتني.. فإنني لست من المواطنين المحترمين.. فأنا أسطو على الناس وأفتح الخزائن وبعض الناس يمقتونني إلى حد يدفعهم إلى أن يرسلوا إلى القنابل داخل طرود البريد، كما أن رجال البوليس يبحثون دائماً عن سبب يتعللون به للقبض على.. إن حياتي ليست ناعمة أو مستقرة كما تحسبين..

– وأنا بالمثل ليس في حياتي شيء من الهدوء أو الاستقرار نحن متفقان في ذلك.

فلم يجب لوبين، وراح ينفث دخان لفافته وهو يحدق النظر إليها وعلى شفتيه ابتسامة شاحبة.

وكان عليه أن يقول شيئاً، ولكنه لم يعرف ما ينبغي أن يقول..

وانبعث رنين الجرس فجأة فوفر عليه هذا العناء..

وأجفلت الفتاة، ثم اعتذرت إليه ومضت خلال الردهة الطويلة فسمع صوت الباب يفتح، كما بلغ مسامعه صوت ذر رنين معدني حاد يقول:

- هالوا يا عزيزتي.. يسرني أنني لم أوقظك من نومك.. هل تسمحين لي بالدخول لحظة؟

وبعد تردد يسير قالت أفالون:

- بلا ريب.. تفضلي..

وسمع لوبين صوت الباب الخارجي يوصد ثم حفيف الثياب، ثم ذلك الصوت المعدني يقول:

- أخشى أن أكون قد أثقلت عليك..

- لا تكوني بلهاء.. تعالى..

وفي اللحظة التالية كانتا في مدخل الحجرة، فنهض لوبين في تراخ بينما كانت أفالون تقول:

- مستر أرسين لوبين.. مس كاي ناتيللو.

فحنى لوبين رأسه، على حين استطردت أفالون:

– تعالى يا كاى.. هيا أجلسي وشاركينا في كأس من الشراب.

ولكن كاى ناتيللو ظلت واقفة في باب الغرفة وهي تعبث بأصابعها في شفتها البرتقالية اللون، وتتفرس في لوبين في اهتمام كبير.. وما لبثت أن قالت:

– لقد رأيت مستر لوبين الليلة. عند كوكي.

فأجابها في تراخ:

– نعم.. لقد أمضيت هناك بعض الوقت..

فجلست أفالون، وراحت تكرر دعوتها للمرأة أن تتناول بعض الشراب، ولكنها لم تتحرك من مكانها، وقالت:

– شكراً.. ولكني لن أبقى طويلاً.. فلم أكن أعرف أنك في رفقة أحد..

فهتفت أفالون، وقد بدأ عليها الحرج:

– دعك من هذا السخف!.. لماذا حضرت إذن إلا أن تكوني قد أردت الجلوس معي بعض الوقت؟

– إن لدى رسالة لك، فإذا سمح مستر لوبين..

– إذا كانت الرسالة من كوكي فإن مستر لوبين كان حاضراً ما

حدث ولن يضيره أن يسمعها.

فترددت المرأة برهة وهي تقلب البصر بين لوبين وأفالون ثم قالت:

– حسناً.. إني لم أكن أود الحضور إلى هنا لولا أن رأيت اهتمام كوكي بالأمر.. فقد كانت ثائرة الأعصاب، أعياها الثمل بحيث لم تتمالك نفسها تماماً.. وهذا ما يزيدها أسى وحزناً.. وهي تريد منك أن تنسى كل ما حدث أعنى أنها ترغب في عودتك إلى العمل معها فقالت أفالون في صراحتها المعهودة:

– إذا كانت آسفة حقاً فلماذا لم تحضر بنفسها إلى هنا؟..

– إنك تعرفين كيف تكون كوكي عندما تثمل.. ولكنها آسفة حقاً.

– حسناً.. يمكنها عندما تفيق أن تتصل بي.. فهي تعرف أين تجدني.

– إنني أدرك شعورك تماماً يا عزيزي.. ولكني جئت إليك لأنها رجتني أن أفعل هذا نيابة عنها.. وها أنا ذاهبة الآن..

فنهضت أفالون، قائلة في تودد:

حسناً يا عزيزتي.. لقد احتملت الكثير من كوكي من قبل.. ولكنها الليلة قد جاوزت كل حد.

– إنك تعرفين طبعها.. وإنني آسفة!

وتحولت عيناها الجامدتان إلى لوبين ثانية وهي تقول:

– طابت ليلتك يا مستر لوبين.. يسرني أن رأيتك..

ثم تحولت بغتة إلى الردهة خارجة.. فلما أوصدت أفالون الباب خلفها وعادت إلى الحجرة، قالت وهي تبتسم:

– حسناً.. هل يرضيك هذا؟

– كلا..

– إنها عادة كوكي أن تبعث بمن تعتذر نيابة عنها، إذ يأبى عليها كبرياؤها أن تفعل ذلك بنفسها.. ولكن هذه المرأة لن..

– أخشى أن يكون قد فاتك شيء هام.. فإن كأي ناتيللو لم تحضر إلى هنا لتحمل إليك اعتذار كوكي.. لقد تركت الملهى بطريقة رائعة، ثم انصرفت بدوري على الأثر ولذلك أرسلت كاى خلفك لترى إن كان ثمت صلة بينك وبيني... ولم تكن توجد أية صلة بيننا في الواقع، ولكن ها هي كاي نانيللو قد رأت غير ذلك.

فتطلعت إليه الفتاة دهشة، وقالت:

– وماذا في ذلك؟

– فيه أنني زججت بك دون قصد لي في مخاطرة كبيرة.. فازدادت

دهشة الفتاة وغمغمت:

– هل تعنى أن ذهابك إلى الملهى الليلي لم يكن بمحض الصدفة؟

– لعل الأمر كذلك!

فسألته الفتاة باهتمام:

– هلا أخبرتني بحق السماء عما يدور حولي؟ إنني لا أفهم شيئاً.

– ذلك خيرك لك الآن.. ومهما يكن فإني لم أكن أود البتة أن يراني أحد من أتباع كوكي عندك.. أما وقد وقع المحظور فينبغي أن تتخذي حذرك.

– أتعنى أن ثمة خطراً يهددني؟

– لست أحب أن أخيفك.. ولكن هذا هو الواقع.

– إنني لا أخاف شيئاً.. ولكن ألا تخبرني بجلية الأمر؟

فهز رأسه سلباً وقال:

– لا يمكنني ذلك الآن، فقد أخبرتك بأكثر مما ينبغي.. ولكن كان يجب أن أحذرك.. ثم إنه كلما قل ما تعرفين كان ذلك أسلم عاقبة لك.. وربا كنت مغالياً في ظنوني، ولكن الأفضل أن تذكري أنني دافعت عنك في الملهي ثم لحقت بك فرأيت من اللياقة أن تدعيني إلى تناول

كأس من الشراب وهذه هي كل الصلة التي تربطنا.

فلم تحر الفتاة جواباً، إذ عقدت الدهشة والانفعال لسانها بينما استطرد لوبين:

– لقد أوشك الفجر أن يبزغ يا أفالون، فهلا طردتني من مسكنك الآن!

الفصل الثالث

استيقظ لوبين على رنين جرس التليفون الموضوع بجوار فراشه، فتناول السماعة وإذا به يسمع قائلاً يقول:

– هالو.. مستر لوبين؟

وكان الصوت مألوفاً لديه، ولو أن نبراته كانت تختلف عن آخر مرة سمعها فيها.

– أجل.. من المتكلم؟

– إنني الدكتور أرنست زلرمان. أرجو ألا أكون قد أيقظتك من النوم!

فنظر لوبين إلى ساعة يده، وإذا بها قد جاوزت الظهر بقليل، فابتسم قائلاً: آه. كلا.. كيف حالك؟

– إنني مدين لك باعتذار يا مستر لوبين.. فقد شربت كثيراً ليلة الأمس، وعلى الرغم من أن الشراب لا يؤثر في عادة فإنني لا أدري

لماذا كان أثره شديداً بالأمس حتى جعلني أسلك مسلكاً لا يغتفر.. أما لهجتي معك، فإني أفضل أن أنسى ما قلته.. وقد استحققت ما حدث لي، ولو كنت في مكانك لما فعلت غير الذي فعلت أنت.

وكان صوت الطبيب يفيض رقة ويقطر عذوبة وأسفا.. وهو صوت الرجل الذي يعرف ما يقول ويوحي إليك بالثقة، ويدعوك إلى الإفضاء لصاحبه بمتاعبك.

فقال لوبين في لين: لقد كنت أعلم أنك لن تحنق على.. إذ أنني إنما كنت أعمل بوحي تعاليمك.. فقد فعلت ما أوحته إليك غرايزك كما أنني لم أفعل إلا ما أملته على غرائزي بالمثل.

– تماماً.. إنك على حق تماماً.. وإني أهنئك على ذلك ويؤسفني أن يبدأ تعارفنا بهذا الحادث.

– لا تفكر في الأمر يا عزيزي الدكتور.. وإذا نشطت غرائزك مرة أخرى فإني على استعداد لتجديد التعارف.

– إن أسفي يا مستر لوبين أعظم مما يمكنني التعبير عنه وإن لدى اعترافاً ينبغي أن أدلي به.. فالواقع أنني من أشد المعجبين بك، وقد قرأت الكثير عنك فكنت دائماً أراك نموذجاً للتعاليم والمبادئ التي تشير إليها.. للرجل الذي لا يتردد لحظة في تحدى التقاليد وقيود المجتمع إذا

عرف أنه على حق.. وقد كان الحادث الذي وقع بيننا بالأمس خير دليل على صدق نظريتي، ولو أن هذا الدليل كان على حسابي.

– سوف تجد مني المزيد من الأدلة يا عزيزي.

– ما دامت لديك هذه الرغبة يا مستر لوبين فإني أرجو أن تتيح لي شرف مقابلتك في مقابلة خاصة.

فنفث لوبين دخان لفافته نحو السقف قبل أن يقول:

– أخشى أن تكون مشاغلي.

– بلا ريب.. إنني أعرف كثرة مشاغلك.. ولكننا الآن يوم الخميس، فلماذا لا نلتقي في عطلة الأسبوع.

– ربما غادرت المدينة خلالها.

– لنتركها إذن للظروف، ففي وسعك أن تعرف رقم تليفوني من الدليل، حتى إذا وجدت أنك ستبقى في المدينة تفضلت بالاتصال بي لنتناول الغداء معاً، فما رأيك؟

ففكر لوبين لحظة ثم قال: حسناً.. سوف أتصل بك.

– وسوف أكون تحت تصرفك.

– ولكن كيف عرفت رقم تليفوني؟

– لقد تفضلت مس دكستر فأخبرتني بعنوانك، إذ أنني اتصلت بها أولاً، بطبيعة الحال، لأعتذر إليها.. وإنني يا مستر لوبين يسرني أن أستمتع بلقائك مرة أخرى طاب يومك.

– سوف تستمتع بذلك حقاً.

وأعاد المسماع إلى مكانه، ثم استلقى في الفراش يفكر في أحداث الليلة الماضية، وفي كوكي، والدكتور زلرمان، وأفالون دكستر.

وإذ راحت أفكاره إلى هذه الأخيرة، ذكر الفترة السعيدة التي أمضاها معها في منزلها ليلة أمس، قبل أن يعود إلى فندقه..

وعندئذ مد يده إلى التليفون، فطلب من عامل الفندق أن يصله برقم ذكره له بعد أن بحث عنه في الدليل ولم تمض لحظة حتى سمع أفالون تجيبه بصوت لا يزال فيه أثر النعاس قائلة:

– هالو؟.. هذا أنت؟

– نعم.. لقد كنت أحلم بك الآن، ولكني استيقظت..

– لماذا لا تعود للنوم ثانية؟

– ليتني أستطيع.. ولكن أحد الزواحف قد أيقظني..

– كزلرمان مثلاً؟

– نعم.. هل اتصل بك؟

– بلاشك.. وقد راح يعتذر في حرارة بالغة، ودعاني لتناول الغداء معه.

– لقد دعاني بالمثل..

– لنذهب معاً أذن.. فلن أقبل دعوته إلا على هذا الشرط..

– سوف ألقاك بعد قليل.. ولكني أرجوك ألا تنسي ما قلته لك بالأمس فلا تقبلي دعوة من أحد، ولا تذهبي في مكان غريب، ولا تصدقي شيئاً يقال لك.. فإنك بعد أن وهدت معي، وأصبحت موضع الشك لصلتك بي، صرت عرضه لأي شيء قد يحدث لك.. فكوني على حذر.

– سوف أكون..

– وسأتصل بك فيما بعد..

وبعد أن تناول طعام الإفطار في حجرته، طلب إلى عامل تليفون أن يصله برقم معين في واشنجتون، وانتظر قليلاً حتى تم الاتصال، فسمع صوتاً أجش يقول:

– إنني هاملتون.. أرجو أن تكون قد وفقت في بحثك.

– إنها فكرتك.. وقد زرت الملهي أمس، ورأيت أصدقاءك..

– وبعد؟

– التقيت بأجمل فتاة في العالم..

– إنك تفعل ذلك كل أسبوع.. ولكن تليفون مكتب المخدرات لا شأن له بذلك فاشرح لي حياتك الغرامية في خطاب خاص..

– إن اسمها أفالون دكستر، وهو موجود في الدليل.

وتعمل مغنية. وقد كانت حتى ساعات قلائل، تشتغل بملهي كوكي.

– إلى أي جانب تنتمي.

– لقد قابلتها فقط، ولكنهم رأوها معي.. فهل لك أن تذكر ذلك إذا ما حدث شيء لي أولها؟. كما قابلت زلرمان بالمثل، فكان لقاؤنا عنيفاً إلى حد ما! ولكنه شخص متسامح لين الجانب إذ اعتذر لي عن ضربي له، ودعاني للغداء.

– أرجو ألا تدعوه بالمثل فتكبدنا نفقات إضافية..

– يمكنك أن تستنزلها من الأتعاب!.. هذا كل شيء الآن وسأطلبك فيما بعد.

ثم أعاد السماع إلى مكانه.. وانثنى يفكر ويمعن في التفكير إذ كان عليه أن يربط بين ما سمعه وما رآه في الليلة الماضية، وأن يرسم لنفسه

خطة العمل بعد ذلك.

واستقر رأيه على أن أول ما ينبغي الاهتمام به هو ذلك المقصف الخيري الذي أنشأته كوكي للبحارة.

ومضى إلى خزانة الثياب، فتناول حقيبة ووضعها فوق الفراش، ثم فتحها وأخرج منها حافظة أوراق جلدية عجيبة لما تحويه في باطنها من ضروب الخداع ووسائل التنكر- فقد كانت بها مجموعة من الوثائق لا ينقصها إلا الاسم.. فمن خطابات مطبوعة يمكن أن تكتب عليها رسائل من أية مؤسسة بين شركة ألبان ذوزي بكانساس سيتي والسفارة اليابانية بأنقرة.. إلى مجموعة من بطاقات الزيارة بشتى الأسماء، وجوازات السفر التي تحمل العلامة المائية لاثني عشرة دولة ورخص قيادة السيارات والطائرات وبطاقات التموين، وتذاكر الاعتماد، وشهادات الميلاد، وتذاكر تحقيق الشخصية، وتصاريح المرور، وتذاكر العضوية بالأندية والنقابات وشتى أنواع التصاريح التي تثبت شخصية حاملها من أحد رعاة الأغنام في بلغاريا إلى أحد تجار العاج في أواسط أفريقيا.. وفوق هذه وتلك مجموعة رائعة من صور أرسين لوبين المختلفة بصورته الطبيعية أو متنكراً بشتى مظاهر

التنكر، متقمصاً أية شخصية تخطر بالبال.. ومع هؤلاء جميعاً عدد وفير من الأختام والطوابع ليفي بأي غرض يمكن أن ينشده.

وجلس لوبين إلى مكتبه فراح يعمل في تمهل وتؤدة زهاء ساعة كاملة، انتهى بعدها من إعداد جميع الوثائق الرسمية اللازمة له متنكراً في صورة ملاح يدعى توم سيمونز، بالبحرية التجارية البريطانية.. وما لبث أن راح يعركها بين يديه، ويحك أطرافها بالمبرأة، وينثر عليها رماد السجاير، ويبللها بالمياه وبعض قطرات القهوة، ثم وضعها على الأرض وأخذ يطؤها بقدميه عدة مرات، حتى رثت وتهدلت وبدأ عليها القدم وطول الاستعمال.

فلما فرغ من هذه المهمة أتم ارتداء ثيابه وغادر الفندق حيث استقل الحافلة إلى ميدان واشتجتون، ومن هناك راح يسير في تلك الشوارع الضيقة، حتى وجد الحانوت الذي يقصده، وهو أحد متاجر الثياب المستعملة.. فزعم لصاحبه أن سيمثل دوراً ميعناً في فرقة تمثيلية للهواة، ويحتاج إلى ثوب كامل مستعمل لأحد البحارة.. وما لبث أن خرج يحمل لفافة بها ما يتمم شخصية توم سيمونز العتيد.

فلما عاد إلى الفندق، وجد رسالتين تليفونيتين.. كانت إحداهما من أفالون دكستر، إذ سألت عنه، وذكرت أنها ستتصل به ثانية في الساعة السابعة..

أما الثانية فكانت من كاي ناتيللو.. فقد سألت عنه ولكنها لم تذكر سبباً أو تعد بالاتصال به ثانية.

وابتسم لوبين، إذ رأى أعداءه يتحركون من كل ناحية مما ينم على أن تدخله قد أفض مضاجعهم.

ثم طلب رقم أفالون دكستر، ولكنه لم يجدها في مسكنها فهبط إلى بهو الفندق، وقضى ساعتين في الثرثرة مع بعض معارفه حتى بلغت الساعة السابعة والربع عندما اتصلت به أفالون، فقالت:

– لقد نسيت يا عزيزي أن أخبرك بأني كنت اليوم على موعد من مدربي لحفظ بعض الأغاني الجديدة، ولقد غبت عن مسكني طول هذه المدة.

– لا بأس يا حبيبتي.. ولكن هل أراك الآن؟

– الواقع يا عزيزي إن مدير أحد ملاهي شيكاغو قد أتى اليوم نيويورك وهو رجل اعتاد أن يحضر لسماع غنائي عندما كنت أعمل هناك.. وقد دعاني إلى تناول العشاء معه، فلم أستطع الرفض، خصوصاً وأنني أبحث عن عمل جديد.

– إنني آسف لذلك يا عزيزتي، فقد كان بودي أن أراك.. ولكن هل تعرفين هذا الرجل جيداً؟

– آه!.. نعم.. إنني أعرفه منذ زمن طويل، وهو شخص وديع لا خوف منه.. وربما استطاع أن يحصل لي على عمل جديد.. ولكن لا تقلق، فلم أنس نصيحتك لي بالحذر.. وبهذه المناسبة قد يسرك أن تعلم أن كوكي اتصلت بي اليوم.

– هل فعلت حقاً؟

– نعم.. وقد اعتذرت لي اعتذار حاراً، وألحفت في الرجاء بأن أذهب لأراها.

– وما الذي عولت عليه؟

– لست أدري بعد.. فإنني أمقت هذا الملهي، وأمقت كوكي نفسها.. ولكنها من جهة أخرى تعرف كل إنسان في المدينة وليس من الصواب مناصبتها العداء.. إلا أنني سأنتظرك حتى أرى ما يحدث.. ما الذي ستفعله الليلة؟

– سأقضي الوقت بين الشراب ومطالعة الصحف!

– أرجو أن أستطيع الخلاص من صديقي هذا في وقت مبكر، فإني أريد أن أراك..

– لماذا لا تتصلين بي عندما تفرغين منه؟ سوف أكون في الفندق، ولكن إذا لم تجديني فاتركي رقم تليفون المكان الذي تكونين فيه.

– سوف أفعل يا عزيزي.. إلى اللقاء!

وظل لوبين يجرع الكأس تلو الكأس، وقد انصرفت أفكاره إلى الدكتور زلرمان، وهو يعجب أشد العجب لماذا يقدم رجل مثله على الاعتذار عن إقحام وجهه في طريق قبضة سريعة منقضة؟.. ولماذا يريد الدكتور زلرمان أن يوطد معرفته بلوبين، الذي لم يكتف بصرعه وإلباسه ثوب الهوان في الملهي وإنما سلبه فتاته ورافقها إلى مسكنها؟.. وكيف أدرك الدكتور زلرمان أن أفالون دكستر تعرف رقم تليفون أرسين لوبين؟

إن الإجابة على هذه الأسئلة لا تدع مجالاً للشك في أن الطبيب منغمس إلى ذقنه في تلك المغامرة التي يسعى لوبين إلى كشف أسرارها.. وما دام الأمر كذلك فينبغي أن يلقى زلرمان نصيبه من الفحص والتمحيص وكشف الستار عنه.

وعندئذ غادر لوبين الفندق، واستقل سيارة إلى عيادة الدكتور زلرمان ليقدم على إحدى مغامراته التي يأتيها عفو الخاطر دون تدبير أو ترتيب، وهو لا يدرى إلى أين تقوده.

وكانت عيادة الطبيب في الطابق الثامن عشر، ولكن لوبين طلب

إلى عامل المصعد أن يمضي به إلى الطابق الثاني عشر بعد أن وقع بدفتر الزوار الليليين باسم جون سميث.

وما كاد المصعد يهبط ثانية حتى راح يرقى الستة الطوابق العليا في خفة وسكون إلى أن بلغ عيادة الدكتور زلرمان.

ولم يستغرق منه فتح قفل الباب الخارجي سوى القليل من العناء، والوقت وما لبث أن وجد نفسه في حجرة انتظار فسيحة أنيقة الأثاث، طليت جدرانها بلون أخضر فاقع مريح للبصر وللأعصاب وحليت برسوم هادئة توحي للمرء بأنه في بيته..

وراح لوبين يفتش الحجرة على ذلك الخيط من الضوء المنبعث من مصباحه الكهربائي فلم يجد فيها ما يستحق الذكر ولم يكن مكتب الممرضة التي تستقبل الزوار يحوى سوى بعض الأوراق والأقلام، وأصبع لطلاء الشفاه، ونصف علبة من السجائر، ونسخة من مجلة «قصص الغرام».. كما كانت فوق المكتب مفكرة للمواعيد كتبت عليها ثلاثة أسماء.

ومضى إلى حجرة العيادة، فوجدها بسيطة الأثاث، جدرانها من الرسوم والنقوش، ولا تحوى إلا مكتب الطبيب وأريكة للكشف، ومنضدة صغيرة.

ولكن أين الملفات وبطاقات المرضى؟.. لا ريب أنه توجد بعض السجلات الخاصة بالعمل المعتاد للعيادة، وهي أشياء لا تدعو الضرورة إلى إخفائها فإن السكرتيرة قد تحتاج إلى بطاقة أحد المرضى، أو تدوين بعض الحسابات.

وعاد لوبين ثانية وهو يسرى كالشبح إلى حجرة الاستقبال حيث راح يدقق الفحص في الركن الذي تجلس فيه السكرتيرة وما لبث أن استقر ضوء مصباحه الرفيع على مقبض معدني صغير في الجدار وفي اللحظة التالية كانت أصابعه تعبث به، فجذبه نحوه ثم رفعه، وإذا بجانب من الجدار يرتفع إلى الأعلى، كاشفاً عن فجوة كبيرة بداخلها درج للملفات، وخزانة صغيرة وآلة كاتبة.

وفيما كان يمد يده إلى درج الملفات ليري ما بداخله، انبعث رنين التليفون بغتة في ذلك السكون الشامل فامتدت يد لوبين نحوه دون وعي ولكنه ما لبث أن تمهل قبل أن يرفع المسماع، ليفكر في الأمر.. ولعل الأغلب أن يكون أحد الناس قد طلب رقماً خاطئاً إذ لا يعقل أن يتصل أحد بالطبيب في هذه الساعة المتأخرة.. ولكن إذا لم يكن ثمة خطأ، وكان الطبيب مطلوباً عن قصد، فما من ضرر في أن يجيب لوبين

النداء.. فلن يعرف أحد من الذي أجاب وأخيراً قال في صوت تعمد تغييره: هالو!

وعندئذ سمع صوتاً رفيعاً خيل إليه أنه قد سمعه من قبل، يقول في لهفة: أرنست.. يسرني أنك عدت مبكراً، وسوف أحضر إليك توا فقد تطورت الأمور تطوراً سيئاً فيما يختص بألبرت فولي..

ولم ينتظر المتكلم رداً وإنما وضع المسماع في صوت حاد كان له بعض الأثر في إنعاش ذاكرة لوبين، فأسرع يحول مصباحه الكهربائي نحو مفكرة المواعيد ليتحقق من صدق حدسه.. وقد أصاب إذ كان اسم ألبرت فولي أحد الأسماء الثلاثة المدونة بها، بين اسمي مسز جرالد ملدون، وجيمس براثر.

وتردد لوبين بين أن يختفي في العيادة ويبقى بها متلصصاً في انتظار الدكتور زلرمان ومحدثه ذي الصوت الغامض المألوف وبين أن يبحث عن ألبرت فولي هذا ليعرف منه ما يمكنه معرفته.. وقد رجحت كفة الفكرة الأخيرة لاسيما أن العيادة لم يكن بها مكان يصلح للاختباء، ولو أن لوبين قد حزن لحرمانه من معرفة ما يحدث عندما يدرك المجتمعان أن الدكتور زلرمان لم يكن هو الذي أجاب نداء التليفون..

وأعاد الجزء المتحرك من الجدار إلى مكانه، ثم غادر العيادة وراح

يهبط الدرج في حذر حتى الطابق الثاني عشر حيث استقل المصعد إلى أسفل العمارة البسيطة إلى الخارج.. وما لبث أن دخل إحدى الصيدليات وابتاع بعض الأدوية البسيطة ثم بحث في دليل التليفون عن عنوان ألبرت فولي حتى وجده.. ثم استقل سيارة ذكر لسائقها العنوان المنشود في بروكلن فلم تمض برهة حتى كانت تسرع به إليه.

وفي خلال الطريق راح لوبين يفكر في صاحب الصوت الغامض الذي سمعه في التليفون.. وكان من الواضح أن ذلك المتكلم كان يتحدث في لهفة وانفعال، كما كان يبدو في عجلة من أمره كأن شراً مستطير قد وقع له.. وعلى الرغم مما بذله لوبين من الجهد في سبيل تذكر صاحب ذلك الصوت، فإنه ما لبث أن كف عن المحاولة إذ لم يستطيع الوصول إلى نتيجة مثمرة.

وأخيراً بلغ المكان الذي يقصده، فوجده منزلاً محترماً من العمارات المعدة للسكنى، فراح يبحث عن اسم فولي في صفحة الأسماء الموضوعة داخل الباب ووجده يقطن الطابق الثامن فمضى يرقى الدرج في صمت وحذر.

وإذ بلغ مسكن ألبرت فولي، لمح شعاعاً من الضوء يتسرب من أسفل الباب مما يدل على أن الرجل لم يكن نائماً.. ولم يكن قد أعد خطته لما

سوف يقوله، تاركاً ذلك لوحي الساعة، كعادته.. ومن ثم قرع الجرس ووقف منتظراً.. ولم يسمع أية حركة تنم على أن شخصاً ما يهم بفتح الباب لذلك الطارق الليلي.. بل لم يسمع شيئاً البتة.. فطرق الباب ثانية.. ولكنه إذ لم يسمع شيئاً بعد ذلك حاول فتح الباب فإذا به يستجيب له سريعاً ليجد نفسه في ردهة صغيرة ولت أثاث متواضع بسيط..

وهتف لوبين في صوت رقيق: فولي.. فولي..

ولكن أحداً لم يلب النداء، فدخل لوبين وأغلق الباب خلفه وراح يجيل نظراته حواليه فرأى في نهاية الردهة بابا يؤدى إلى المطهى وآخر لا ريب أنه باب حجرة النوم.

ولم يجد أحداً في المطهي، فقرع باب حجرة النوم، ثم فتحها فألفاها تسبح في ظلام دامس فمضى يبحث عن مفتاح النور حتى وجده.

وما أن سطعت الأنوار في الحجرة حتى وجد بها رجلاً.. ولكنه كان جثة هامدة، وقد انبطح على وجهه فوق الأرض والدماء الغزيرة التي تدفقت من ظهره تصبغ البساط الأخضر حوله.

وراح لوبين يفحص القتيل، دون أن يحرك الجثة بأكثر مما ينبغي.. فوجده شاباً في مقتبل العمر، لا يعدو الثلاثين يرتدي ثياباً نظيفة بسيطة تحمل أوراقه الشخصية التي في جيبه اسم ألبتر برادفورد فولي عضو

اتحاد البحارة.

ولم يكن بجيوب القتيل أي شيء يمكن أن ينم على العلاقة بينه وبين الدكتور أرنست زلرمان.. كذلك لم يجد لوبين في المسكن، بعد أن فتشه بيد خبير مدرب، أي دليل على وجود تلك الصلة.

فلما فرغ من بحثه، غادر المسكن بعد أن أعاد كل شيء إلى مكانه.. ومضى إلى مقصورة التليفون بأحد الحوانيت القريبة حيث طلب الاتصال بمركز البوليس ببروكلن.. وأخبر الشرطي المنوب، بعد أن ذكر له عنوان المسكن أنه «سوف يجد شخصاً يدعى ألبرت فولي ميتاً.. وسوف يعرفه من المدية الحادة التي يضعها في ظهره».

الفصل الرابع

وفي منتصف الساعة الحادية عشرة من الصباح التالي، اتصلت به أفالون دكستر تليفونياً قائلة إنها لم تستطع الانتظار أكثر من ذلك حتى تطمئن عليه، وسألته متى يريد أن يقابلها فقال:

في أقرب فرصة ممكنة يا عزيزتي.. هل قضيت وقتاً طيباً ليلة أمس؟

– بالعكس.. قضيت وقتاً تعسا.. فقد عرض ذلك الأحمق عملاً في كليفلاند ولكنني رفضته.. لأنك لا تقيم في تلك المدينة!

– شكراً يا حبيبتي.. وما قولك الآن في أن نخرج معاً لنزور بعض الناس، ثم نمضي بقية اليوم معاً؟

– بعد نصف ساعة..

وما كان ارتداء ثياب الخروج يستغرق منه كل هذا الوقت، ولكنه

كان في حاجة إلى محادثة تليفونية مع واشنجتون.

وسأله هاملتون عندما اتصل به:

– هل من جديد يا بني؟.. أتراك زججت بنفسك في ورطة جديدة؟

– كلا.. ولكنني أود أن تخبرني بكل ما يمكن معرفته في شخص يدعى ألبرت برادفورد فولي. لقد كان باستطاعتي أن أتحرى عنه بنفسي لولا أنك يمكنك القيام بذلك أسرع مني، كما أن لدى أعمالاً أخرى؟

– أي نوع من الأعمال يا ترى؟

– سأقرأ الصحف وأصحب فتاتي إلى بعض الزيارات.

– أهي الفتاة نفسها؟

– بلا ريب.

– وما الذي عرفته عن القضية؟..

– لم أعرف شيئاً معيناً بعد.. ولكن من يدرى ما يأتي به الغد؟

فلما فرغ من حديثه تناول إحدى الصحف وراح يقرأها في الطريق بعد مغادرته الفندق، فوجدها قد نشرت نبأ الجريمة في سطور قليلة فذكرت أن ألبرت برادفورد، سكرتير اتحاد البحارة وجد مقتولاً في مسكنه بروكلن ذلك الصباح بواسطة رجال البوليس، على أثر بلاغ

غامض من شخص مجهول أدلى به إلى الشرطي المنوب تليفونياً.. وقد أسرع المفتشان رايت وماكتشون إلى مسكنه فوجدا الجثة مسجاة في حجرة النوم، وقد غيبت في ظهرها مدية كبيرة مما يستعمله القصابون.. وذكر كبير المفتشين فرناك أن من المتوقع القبض على القاتل في أية لحظة.

وفيما كان لوبين في السيارة التي أقلته إلى مسكن أفالون دكستر راح يفكر فيما يعنيه كبير المفتش بأنه على وشك القبض على القاتل. فما من ريب في أن البوليس لا يعرف عن الجريمة أكثر مما يعرفه هو. وإلا فهل يعلم البوليس بالعلاقة بين القتيل وبين الدكتور زلرمان؟ وإذا كان الأمر كذلك فكيف يتوقعون القبض على القاتل؟ لا. إن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد مغالاة من محرر الجريدة، ليسبغ على الخبر شيئاً من الأهمية.

وقابلته أفالون في ثوب منزلي أنيق، وقادته إلى حجرة الاستقبال ثم أحضرت له زجاجة من الجعة، ريثما ترتدي ثياب الخروج.. فراح يفكر في مسز جيرالد ملدون التي اعتزم زيارتها، وهي صاحبة أحد الأسماء الثلاثة المدونة بمفكرة عيادة الدكتور زلرمان.. وكان اسم زوجها جيرالد ملدون من الأسماء اللامعة وسط رجال الأعمال ولو أن الصفقات التي كان يبرمها في الأسهم والسندات كانت صفقات مريبة إلى حد ما، لاسيما وقد كان يستخدم أسماء مستعارة في بعض العمليات.

أما مسز ملدون فلم يكن لوبين يعرف عنها شيئاً، ولكن أدرك أن ثمة أسباباً معينة هي التي تدفعها إلى استشارة طبيب نفساني كالدكتور زلرمان، وهذه الأسباب هي التي يعتزم اكتشافها.

وكان من السهل أن يجد عنوانها في الدليل.. وكذلك لم تمض ساعة حتى كان يقرع باب جيرالد ملدون، ثم يمضى والفتاة إلى حجرة استقبال نفيسة الرياش، حيث وافتهم إليها مسز ملدون.

وكانت السيدة على جانب عظيم من الملاحة والفتنة من ذلك الجمال الهادئ الرزين، طويلة القوام، فاحمة الشعر ترتدي ثياباً بسيطة أنيقة وتسير في خطوات وئيدة رشيقة.

وكانت نبرات صوتها الموسيقي ممزوجة بالدهشة عندما قالت:

- هل طلبتم مقابلتي؟

فقدم لوبين إليها نفسه قائلاً:

- إنني أرشي وليامز، المخبر بمجلة (تايم).. وهذه زوجتي..

فغمغمت مسز ميلدون وقد ازدادت دهشتها.

- يسرني أن أراكما.. هل لكما في شيء من الشراب.

فلما أومأ شاكرين، أمرت مسز ملدون الخادم أن يأتي بمنضدة

الشراب المتنقلة، ثم التفتت إلى لوبين، متسائلة- مجلة تايم؟.. وماذا تريد مني؟.. ولكن لا بأس لننتظر حتى تتناولا شيئاً ثم نتحدث..

فلما قدم الخادم كؤوس الشراب إلى ثلاثتهم، قالت مسز ملدون:

- حسناً يا سيدي المحرر ماذا وراءك؟

- لقد كلفت بجمع المعلومات اللازمة عن الدكتور زلرمان حيث إننا نعتزم كتابة مقال عن مشاهير الأطباء.

فحملقت مسز ملدون فيه وقالت: يا إلهي!.. وما شأني بذلك؟

- إنني أريد أن أطرح عليك بضعة أسئلة، تساعدني على وصف شخصية الطبيب وصفاً صحيحاً فإن مهمتي هي معرفة آراء المرضى في أطبائهم.

- ولماذا اخترتني بالذات؟

- ألست من زبائن الدكتور زلرمان؟

- حسناً.. نعم..

ولحظ لوبين ترددها، ولكنه لم يعلق على ذلك وقال:

وكيف ترينه؟

- إنه شديد التفاخر والخيلاء..

– هكذا؟ أحسب أن شعوراً كهذا قد يفسد الصلة بين الطبيب ومرضاه؟

– إنه رجل مغرور.

– حقاً؟.. لقد ظننت أن له شهرة ذائعة؟

– وما هذه الشهرة؟.. إنها ما يذيعه عنه ذوو الرؤوس الفارغة الذين تؤثر فيهم طلعته المهيبة ولمسات أصابعه الرقيقة وكذا ما يقوله أولئك المحدثون الذين يتباهون بقولهم: «لقد دفعت خمسمائة دولار في زيارة واحدة له».

– أراك متحاملة عليه.

– كلا.. ولكن ما الذي تريد معرفته عنه؟.. عندما كان في فينا في الثالثة من عمره ضربه أحد القصابين على يديه إذ حاول سرقة بعض (السجق). وكانت نتيجة ذلك أنه يصر على أن ترتدي سكرتيرته ثوباً أزرق اللون.. فهو لا يطيق رؤية ثوب أبيض حواليه.. وهو لا يعرف السبب طبعاً وليس لديه أقل فكرة عن أن القصاب الذي ضربه كان يرتدي معطفاً أبيض اللون وأن كرهه لهذا اللون ناشئ عن عقدة نفسية في أعماقه هو.

– يبدو أنه لا يصلح موضوعاً لمجلتنا.

– آه!.. امض في سبيلك ولا تبال.. هل لك في كأس أخرى؟

– هلا أخبرتني يا مسز ملدون، كيف تتوقعين الحصول على علاج نفساني من رجل تتحدثين عنه بهذا الازدراء.. فاعتدلت مسز ملدون في جلستها، وهتفت:

– ازدراء؟.. لا شيء من ذلك يا سيدي.. فهو رجل بارع في عمله، قادر على أن يجعلك تتحدث عن نفسك بأشياء ما كنت تحب أن تتحدث عنها.. وربما كان ذلك مفيداً، فلست أدرى.. نعم.. يجب أن يكون كذلك. فقد أفادني في فهم نفسي، ولو أنني لم أكن أحب أن أفهمها.. ولكن جيرالد أصر على ذلك..

– هل أفهم من ذلك أن صلتك بالدكتور زلرمان قد راقت لك؟

فتطلعت إليه في ثبات، وقالت:

– راقت لي؟.. ما الذي تعنيه بهذا القول تماماً؟ أنت أحياناً تقع فريسة عاطفتك إذا أثيرت دفعة واحد.. والعاطفة قوة دافعة لا يمكن تجاهلها.. فإذا وقعت فريسة لها، فإن كان ما تفعله وقتئذ يروق لك.. حتى لو ذهبت تلعن نفسك بعد ذلك، أو إذا لم تجد الجرأة للتحدث عنه

– أتعنين أنه ليس قويم الخلق؟

– وما هو الخلق القويم؟ وكيف يتفق ذلك مع كونك من البشر؟..

إن مجرد كونك من البشر يجعلك تخضع لحوافز معينة هكذا قال العالمان فرويد وكرافت ابنج.

– وهل يخضع الدكتور زلرمان لحوافز معينة؟

– لا ريب أنه يفعل.. حتى ولو قيل عنه أنه طبيب ساحر للنفس والعقل. فإن ذلك لا يغير أخلاقه قط.. وجميع العوامل والأشياء التي خلقت منه ما هو عليه الآن لا يمكن أن تتغير أو تتبدل.

فجرع لوبين كأسه، ووضع القدح الفارغ أمامه، ثم قال: لقد أضعنا الكثير من وقتك يا مسز ملدون، فشكراً لهذه المعونة الثمينة.

فنهضت السيدة وهي تبتسم ابتسامة رقيقة وقالت:

– لا تظنني متحاملة على الرجل.. فإن الذين يعتقدون أنه ملاك طاهر أكثر ممن يخالفونهم هذا الرأي.. ثم إنه في بعض الأحيان يكون كذلك حقاً.

ولم يسألها لوبين عن هذه الأحيان، وإنما انصرف وأفالون حيث استقلا سيارة ذكر لسائقها عنوان جيمس برائر صاحب الاسم الثالث الذي رآه في مفكرة زيارات الطبيب، ثم راح يفكر فيما سمعه من مسز ملدون.

وأخيراً غمغم:

– لا ريب أن الرجل يمارس ابتزاز المال بالتهديد.. وليس يعنيني رأيها في زلرمان، ولكنها ما كانت لتتحدث عنه بهذه المرارة لولا أنه يستنزف دمها بطريقة ما.. وعلينا أن نكتشف كيف يفعل ذلك.

– لست أحسب أنني يمكنني مساعدتك في هذا الأمر.. ولكني أعتقد أن السيدة قد تورطت في علاقات آثمة مع الطبيب أو مع غيره..

– لعلك على صواب.

واستمر يتحدثان في هذا الأمر حتى بلغا منزل براثر، فوجداه يقطن مسكناً أنيقاً في حي راق.

وقد استقبلهما الرجل في غير حفاوة، وطلب إليهما أن يجلسا، ولكنه لم يعرض عليهما شراباً، وإنما راح يذرع الحجرة مقطب الحاجبين عابساً. وكان في نحو الثلاثين من العمر، ذا عينين زرقاوين واسعتين قد برزت حدقتاهما بما يذكرك بهيئة السرطان البحري.

وأخيراً قال في جفاء: ماذا هنالك؟..

فقدم له لوبين نفسه كمندوب لمجلة تايم، وذكر له موضوع البحث الذي يقوم به، فقال:

– أجل.. أجل.. ما الذي تريد أن تعرفه عن الدكتور زلرمان؟.. أي نوع هو من الرجال، أم أي نوع من الأطباء؟

- كلاهما..

- آه! حسناً.

وعندئذ دوى جرس التليفون، فاعتذر براثر لزائريه، ولبي النداء، وهو يصغى في لمعان واهتمام.. ثم ألقى نظرة على لوبين، وهو يقول لمحدثه:

- نعم.. لقد فهمت.. إلى اللقاء..

ثم تحول إلى لوبين قائلاً: هل لك أن تسمح بالخروج من هنا؟

وكان لوبين في بادئ الأمر يتأمل مستر براثر في ازدراء، ثم في تلذذ، كما يرقب المرء شخصاً في ورطة مضحكة، ومن ثم لم يبال بقوله، وقاد أفالون إلى أريكة مريحة، ثم جلس إلى جانبها، وأخرج من جيبه قلما مذهباً ومفكرة أنيقة، وقد لاحت في عينيه تلك النظرة الساخرة وهو يقول:

- ما الذي كنت تريد قوله عن الدكتور زلرمان؟

فراحت أصابع جيمس براثر تعبث بطرف ثوبه في عصبية شديدة وهو يهتف: أرجوك.. ينبغي أن تنصرف للتو، فليس لدى وقت أقضيه معك الآن.. تعال غداً.. أو في الأسبوع التالي.. إنني على موعد بالغ الأهمية، لم يكن منتظراً.. وإني آسف لذلك.. ولكن..

ثم مضى إلى الباب وفتحه على مصراعية..

ففكر لوبين ملياً، ثم نهض وعاون أفالون على القيام بالمثل.. فلما بلغا الباب قال لمسز براثر: سوف أعود فيما بعد..

فأومأ الرجل برأسه في حنق ولبث واقفاً حتى سار الزبائن بضع خطوات فصفق الباب في عنف!

فلما دخلت أفالون المصعد، قال لها في همس.

– انتظريني في دهليز العمارة يا عزيزتي..

ولما هبط بها المصعد مضى لوبين إلى أحد الأركان فاختبأ به بحيث كان يستطيع أن يرى باب المصعد وباب مسكن براثر معاً.. إذ كان على يقين من أن انتظاره لن يطول قبل أن يحدث شيء معين.. أما كنه هذا الشيء فلم يكن في وسعه أن يحدسه..

وراح يفكر في الآثار الزائفة التي اقتفاها قبل أن تقوده غريزته وأبحاثه إلى «قبو كوكي».. ترى هل يكون هذا أحدها؟.. وهل يسفر انتظاره عن أن الموعد الذي أثار انفعال براثر ولهفته لا صلة له البتة بقضية تهريب المخدرات هذه؟

وسمع أزيز المصعد، وما لبث أن رآه يقف، ويخرج منه شابان يدل مظهرهما على أنهما قد عادا للتو من البحر.. ومع أنهما كانا يرتديان ثياباً مدنية، إلا أن البحر كان يبدو واضحاً في بشرتهما التي لوحها هواؤه،

وفي أيديهما الخشنة، وفي مشيتهما المتأرجحة.

ومضى الشابان قدماً إلى باب جيمس براثر فقرعا الجرس وما لبث الباب أن فتح على الفور حيث دخلا وأغلق الباب خلفهما.. وعندئذ خرج لوبين من مكمنه وراح ينصت أمام الباب ولكنه لم يسمع شيئاً، إذ كان الباب سميكاً محكم الغلق.. فهز رأسه في أسف، ومضى نحو المصعد واستقله إلى الطابق الأسفل حيث وجد فالون جالسة في انتظاره بالدهليز..

– فقال لها: لقد طرأت لي فكرة لا بأس بها.. ولكني لا أريد أن يراني أحد معك الآن قبل أن نستعد.. ولعل هذين البحارين يتأخران بضع دقائق ريثما أخبرك بها..

وخرجا من باب العمارة فدعا إحدى سيارات الأجرة، وأعانها على الصعود إليها ثم قال:

– سوف يخرج الآن شابان من البحارة لعلك رأيتهما عند حضورهما، وأحدهما في ثوب رمادي والآخر في ثوب أزرق ألم يلاحظا وجودك؟

– لقد كادت نظراتهما تخترقني، ولكنهما لم يكلماني.

– اعذريهما يا عزيزتي، فقد كانا مشغولي الفكر بأمور هامة.. ولكنهما

سيفرغان منها عند خروجهما، ويغدوان على استعداد للقيام بجولة في المدينة للمرح واللهو.. وسوف يذكرانك عند انصرافهما ويسرهما أن تصيبهما لقضاء بعض الوقت في إنفاق الثروة التي اكتسباها أخيراً فنظرت إليه أفالون في دهشة وقالت:

– لست أدري عن أي شيء تتحدث؟

ولكن لوبين لم يكن بالذي يفصح عن أغراضه، حتى ولو كان ذلك لفتاة جميلة مثل أفالون دكستر.. فهو لا يدرى حتى الآن حقيقة موقفها منه.. وإذا كانت من أفراد العصابة وتؤدى دوراً بارعاً لخداعه وهي فكرة يحس بأن كل جارحة في جسمه تعارضها وتثور في وجهها، فإنها قد تعرف إن كان يسير في أثر صحيح أم خاطئ.. وسوف تؤدى معرفتها هذه إلى تحذير الشابين اللذين في مسكن جيمس براثر الآن..

ولذلك ابتسم في دعة، وقال:

– إنني نفسي لست أدري عن أي شيء أتحدث يا صغيرتي.

ولكن إذا صح حدسي فإن هذين الفتيين سوف يخرجان من هنا ولديهما رغبة واحدة، هي البحث عن أسرع وسيلة للهو والمرح.

وكان لوبين قد رسم خطته في لمحة خاطفة، إذ كان يريد أن يتحدث إلى هذين الشابين دون أن يعرفا أنه قد تعمد ذلك.. فاستطرد قائلاً:

– هل لك أن تسدى إلى صنيعاً بسيطاً يا عزيزتي؟

– بلا ريب.. إنني أفعل المستحيل من أجلك.

– إنني أريد أن تعودي ثانية إلى ذلك المنزل وتنتظري في دهليزه..

فصمتت أفالون لحظة وجيزة ثم قالت:

– لقد فهمت غرضك. ولكن ما هي الصفة التي أقدمك بها إليهما؟ مدير أعمالك..

– أجل.. إذن فأنت تريد أن أجعلهما يرياني عند خروجهما ويتعرفان بي وفي اللحظة التي نخرج فيها إلى الطريق تظهر أنت قادماً بهذه السيارة فأقول لهما إنني لا أستطيع الذهاب معهما. ولكنك تسمح لي بذلك على شرط أن ترافقنا، وعندئذ نستقل السيارة جميعاً.. أليس كذلك؟.

فقبلها لوبين في إعجاب، وأومأ موافقاً، وعندئذ غادرت السيارة إلى المنزل. يتبعها بنظراته برهة وقد أدهشة ذكاؤها الخارق إذ استطاعت أن تحدس خطته بأدق تفاصيلها دون أن يذكر لها سوى فكرة عامة عنها.

واستقل السيارة بدوره وطلب إلى السائق أن يقف بها في طريق جانبي ويتأهب لأول إشارة منه.

ولم تمض دقائق معدودات حتى رأى لوبين أفالون دكستر تبدو

من باب المنزل ومعها الفتيان.. وفي اللحظة التالية، كان يقف بالسيارة أمامهم، ويفتح بابها قائلاً:

– معذرة يا عزيزتي.. لقد تأخرت قليلاً حتى خشيت ألا أجدك.

– نعم، لقد حضرت كثيراً، وكنت على وشك الانصراف.. حسناً! أما وقد حضرت.. على فكرة أقدم لك جوهيمان، وسام جفريز.

فصافحهما لوبين قائلاً في مرح.

– اسمي سيمبلون.. إلى أين تريدون الذهاب؟

فقالت أفالون في ارتباك: إنني ليست واثقة من أنك مدعو إلى هذه النزهة يا سيمون. لقد كنت وهذين السيدين نعتزم القيام بجولة في المدينة.

– ولكني مدير أعمالك يا عزيزتي، ولا يمكنك أن تعملي أي شيء دون موافقتي.

فرفعت الفتاة حاجبيها وقالت: أي شيء؟..

– حسناً!

وارتبك الفتيان بالمثل، ولكن أفالون طرقت الأرض بندمها في حنق وقالت:إنك تعرف ما أعنيه..

فقال لوبين في صراحة: إنني مدير أعمالك يا مس دكستر بحكم

القانون.. ومن حقي أن أقدم لك مشورتي فيما يختص بانتقالك هنا أو هناك، وعليك أن تعملي بهذه المشورة.

فقوست شفتيها في ازدراء، وغمغمت:

– هل كونك مدير أعمالي يكسبك حق التدخل في شئوني الشخصية؟

– أخشى أن يكون الأمر كذلك رغم ما فيه من هوان.

وكان الفتيان يتململان من وقفتهما وينقلان قدماً بعد الآخر.. في حين كان لوبين يود أن ينقض على أفالون ويقبلها إذ كانت تؤدى دورها في براعة عجيبة وهي ترمقه بنظرات السخط والحنق.

وأخيراً قال سام جفريز:

– لقد كنا على وشك القيام بجولة بسيطة في المدينة.. ففكر لوبين قليلاً ثم قال: إنها فكرة طيبة.. لماذا لا نقوم بها جميعاً؟..

ونظر كل من الفتيين إلى أفالون، فما كانا يرغبان في أن يصحبهما رقيب أو عاذل.. ونظرت إليهما بدورها، ثم إلى لوبين، ثم هزت كتفيها في غير اكتراث..

وعندئذ قال جوهيمان: ولم لا؟..

وهكذا استقلوا جميعاً تلك السيارة. وفيما كان لوبين يتبعه إلى داخلها

رفع نظره إلى الأعلى، فرأى وجه جيمس براثر مطلاً من إحدى النوافذ.

تعمد لوبين أن يكون مجلسه في أحد المقعدين الأماميين الصغيرين، وظهر إلى السائق، حتى تتاح له فرصة النظر من النافذة الخلفية فيعلم إن كان هناك من يقتفى أثرهم.. ولكنه ما كاد يجلس حتى لاحظ أن سام جفريز قد أخرج مسدساً من جيبه صوبه نحوه، وراح يحدجه بنظراته فترة طويلة قبل أن يقول:

– يا لك من رجل عنيد.. بل لقد سمعنا أنك أكثر من ذلك.. ولكن أتحسبني لم أعرفك؟.. لقد نشرت لك الصحف صوراً كثيرة.. فأنت أرسين لوبين!

فابتسم لوبين ابتسامة رقيقة، وقال: هل الأمر كذلك؟.. وما دمت تتكلم بهذه الصراحة فلماذا إذا تهددني بهذا المسدس؟..

فشهقت أفالون، وكانت لم تر المسدس بعد.. بينما قال سام جفريز:

– حسناً.. أحسب أنه ليس ضرورياً.. فإنني لن أطلق النار عليك إلا إذا حاولت خداعنا بأكثر مما فعلت الآن..

– ولكنى في الواقع مدير أعمال هذه السيدة، فهي مغنية بالنوادي الليلية..

– إنني لا أعترض على هذا القول بشيء الآن.. وسوف نرى..

وبدا لوبين يتحسس جيبه الداخلي وهو يقول: هل لي أن أدخن؟

- بلا ريب..

فأخرج لوبين علبة سجائره، وأشعل لفافة منها، ثم أعادها إلى جيبه، وهو ينتهز الفرصة ليتحسس المدية التي يربطها إلى ذراعه حتى يستوثق من وجودها.

واستطرد سام جفريز: حسناً.. إني لم أعرفك في بادئ الأمر، ولكني تبينت حقيقتك بعد أن ركبنا السيارة معك، فسألت نفسي ماذا يريد لوبين من شخصين مثلنا؟.. فلما لم أستطع معرفة ما تسعى إليه، قلت إن خير وسيلة هي أن أتخفز للدفاع عن نفسي فأخرجت مسدسي.

فتنهد لوبين في ارتياح، إذ تبين أن سام جفريز قد فوجئ بظهوره أمامه.. ولو أن أفالون كانت ضمن العصابة لحذرتهما منه قبل خروجها معهما.. ولكنا لم..

ولكن من يدرك؟.. ربما حذرتهما أفالون منه، ولكنها ببراعتها رسمت لهما هذه الخطة حتى لا يرتاب لوبين في أمرها.

وهكذا كان لوبين في حيرة من حقيقة أمر الفتاة.. ويرى أهمية قصوى في الوصول إلى رأي حاسم عن نواياها وأغراضها.. خصوصاً

وأنه يرى نفسه يسير في الأثر الصحيح نحو الهدف الذي يرمى إليه، وما دام ذا صلة برجال البحر..

ففي وسعه أن يتصور تلك البواخر التي ترحل من نيويورك، لتخترق قناتي بنما أو السويس في طريقها شرقاً أو غرباً، ووجهتها دائماً إلى بلاد الشرق الأقصى.. منها ناقلات البضائع الصغيرة، ومنها بواخر الركاب الكبيرة الذاهبة إلى كلكتا أو سنغفورة أو شنغهاي.. وفي هذه أو تلك يرى أحد البحارة يهبط تلك الموانى، ويذهب إلى عنوان معين، فيقول: «لقد أرسلني جورج».. فتكون هذه العبارة السحرية أشبه بعبارة (افتح يا سمسم)، تفتح له الأبواب المغلقة، وتضع أمامه طعاماً دسماً وشراباً سائغاً.. وفي نهاية زيارته يعطي لفافة كبيرة أو صغيرة ليعود بها إلى نيويورك ويسلمها إلى (جورج).

وجورج، في قصتنا هذه، هو جيمس براثر.

ولكن لحساب من يعمل هؤلاء البحارة الأغرار حقاً؟.. إن جيمس براثر لا يمكن أن يكون إلا وسيطاً بينهم وبين.. بين من يا ترى؟

هذه هي المسألة التي تتطلب الحل الذي ينشده لوبين، وينشده معه مستر هاملتون مدير مكتب المخدرات في واشنجتون.

وأخيراً قال لسام جفريز:

– هل تريد أن أريك تذكرة عضويتي في اتحاد الوكلاء؟

– لتثبت لي أنك وكيل أعمالها؟.. كلا.. لا داعي لذلك الآن.. وربما كنت قد تسرعت قليلاً.. فما قولك في أن ننسى ما حصل؟

– أتحب أن نتصافح باليد اليسري، أم تفضل أن تعيد هذه الآلة الجهنمية إلى جيبك؟

فضحك سام جفريز، ووضع المسدس في جيبه، ثم صافح لوبين بيد خشنة صلبة، جعل يهزها في عنف وقوة فقالت أفالون وهي تبتسم:

– ولكنكم لم تقولوا للسائق حتى الآن أين يذهب بنا..

– إنك ضيفة الشرف الليلة يا مس دكستر، فلماذا لا تذكرين المكان الذي تفضلين الذهاب إليه.

فنظرت الفتاة إلى لوبين، ولكنه كان ينظر إلى الخارج.. وعندئذ التفتت إلى جوهيمان قائلة: لنذهب إلى حيث يختار جو.

فبدت الحيرة في أسارير الفتى.. وتردد طويلاً وقد اصطبغ وجهه بحمرة الخجل إذ رأى أنظارهم جميعاً تتطلع إليه في انتظار قراره.. وأخيراً أشرق وجهه وقال: لماذا لا نذهب عند كوكي؟

ولم يكن لوبين يحب الذهاب إلى الملهى في صحبة الفتيين ولكنه من

ناحية أخرى رأى في ذلك وسيلة لاستطلاع أخبار معسكر الأعداء.. فقد رآه جيمس براثر يغادر منزله في صحبة أفالون والبحارين.. وإذا صح حدسه فإن هذا الأمر جدير بأن يبلغه براثر للتو إلى مركز القيادة.. فإذا ذهبوا جميعاً إلى الملهى، في تلك الساعة المبكرة، فقد يقدم الأعداء على العمل في صراحة، وعندئذ تنكشف له أمورهم على حقيقتها.. ولذلك فقد غمغم: إنها فكرة طيبة..

وعندئذ ماتت الكلمات التي أوشكت أفالون على النطق بها على شفتيها.. فقد كانت تريد أن تقول إن ذلك الملهى يكون سخيفاً مملاً في تلك الساعة المبكرة، وأنها لا تحب الذهاب إليه، ولكن عندما أبدى لوبين موافقته، أخلدت إلى الصمت وهي تلقى عليه نظرة حائرة..

وأحب لوبين أن يعرف ما يبطن الفتى، فقال:

– ولكن لماذا اخترت كوكي بالذات؟

فأجاب سام جفريز: إن زملاءنا لا يفتأون يقولون إنه مكان جميل يقضى فيه المرء وقتاً طيباً.. فإن المرء إذا عاد من الشرق الأقصى يحتاج إلى مكان مثل هذا ليستمتع فيه بأجازته..

– آه.. وهل سمعت باسم كوكي، في الشرق الأقصى؟

– ولكنك لم تذهب إليها قط؟

- كلا..

- ليتني أذهب إلى الشرق مرة!.. فإن له سحر يشوقني إلى رؤيته.. ترى أين كنتما في رحلتكما الأخيرة؟

وبينما مضى سام يعدد الجهات التي مرا بها كان لوبين يفكر في تلك الحقيقة، وهي أنهما لم يذهبا إلى «قبو كوكي» ويخيل إليه أن ذلك لا يتفق والفكرة التي كونها في بادئ الأمر.. وشعر بأن هناك حلقة للاتصال بين بحارة البواخر وبين «قبو كوكي» فهل هو جيمس براثر؟ أم المرحوم ألبرت برادفورد فولي؟..

ثم إن فولي كان على صلة بالدكتور زلرمان.. وهذا الأخير وثيق العلاقة بقبو كوكي أو بالأحرى بشخص معين هناك فلا ريب أن هناك حلقة معينة تربط بين هؤلاء جميعاً.

ومهما يكن من أمر، فقد ذهبوا إلى الملهى.. وكان خاوياً إلا من بعض الرواد المتناثرين هنا وهناك.

ومن هؤلاء كان جيمس براثر، منهمكاً في الحديث مع كاي تانيللو.. فما كاد يلحظ دخولهم حتى ضاقت عيناه، وغادر مائدته ومضى يسير نحوهم في تمهل.

الفصل الخامس

أحس لوبين بحاسته السادسة المرهفة، بنظرات جيمس براثر وهي تخترق ظهره، فألقى نظرة سريعة خلفه، ورأى الرجل وهو يتقدم نحوهم.

فأدرك للتو أنه يريد أن يتحدث إليه، بل لقد كان في وسعه أن يحدس كل كلمة من العبارات التي سيوجهها براثر إليه.. ومن ثم همس في أذن أفالون قائلاً:

– خذي زميليك إلى إحدى الموائد البعيدة، وسألحق بكم بعد أن أتبادل كلمتين مع صديقنا هذا.

فسارت الفتاة بين الشابين إلى الطرف الأقصى للقاعة على حين وقف لوبين في انتظار جيمس براثر الذي ابتدره قائلاً:

– ما الذي جئت تفعله هنا بحق الشيطان؟

فارتسمت على شفتي لوبين ابتسامته المألوفة الظاهرة البراءة، كما

التمعت في عينيه لمحة السخرية التي طالما عصفت بأعصاب أعدائه، بحيث تململ براثر في وقفته وأخذ يجول بنظراته هنا وهناك وهو لا يستطيع أن يواجه بها لوبين فمرت نظراته البحارين وهما في صحبة أفالون، ولكنه لم يبد في عينيه ما يدل على أنه يعرفهما.. وأخيراً أجاب لوبين:

– لقد بذل كثير من أبناء هذه البلاد دماءهم في سبيل الحرية والديمقراطية يا صديقي العزيز، حتى فازوا بها وغدت تعاليمهم دستوراً موروثاً على كر السنين.. ومنها أنه من حق مواطن مثلي أن يدخل أي محل عام يعجبه، حتى ولو وكان وكراً خبيثاً، فاسد الهواء يقدم أشربة مغشوشة كهذا!.

فأجاب براثر في دهشة وحنق:

– إن وراء مسلكك هذا شيئاً لا أفهمه.. ففي بادئ الأمر جئت إلى مسكني بتلك الأكذوبة الصارخة عن الصحف والأبحاث.. ثم تبعته إلى هنا بعد ذلك.. فلماذا؟ إنني أعرف من أنت.. فأنت أرسين لوبين! ولكني رغم ذلك لا أستطيع أن أفهم لماذا تتبعني إلى هنا..

– أتبعك؟ إنك يا ابني لست بالذي أتبعه إلى مثل هذا الركن من الفردوس المفقود.. ولكن ما دمت قد استطعت الحضور إلى هنا بمثل

سرعة البرق فيسرني أن أراك، وأن أصل إلى ما انقطع من حديثي معك.. لماذا لا تجلس معنا؟ إنني لازلت في حاجة إلى جميع المعلومات التي أريدها.

فنظر براثر إلى المائدة التي جلست إليها أفالون والفتيين في إمعان ثم أجاب: شكراً لك.. يسرني أن أقبل دعوتك.

فلما بلغا المائدة، كان سام جفريز يقول مسترسلا كأنما يتم حديثاً بدأه: وكان هناك ذلك الرجل الذي ينبغي مقابلته في شنغهاي.. وأراد جو أن يشرب حتى الثمل أولاً، ولكنني قلت له إننا يجب أن نرى ذلك الرجل قبل أن..

ولكنه قطع حديثه، ورفع أنظاره إلى أعلى.. وبدت عليه لمحة من المعرفة حين نظر إلى براثر في غير دهشة أو تعجب ومع ذلك قال للوبين:

– لقد كنت أحدث مس دكستر عن رحلتنا الأخيرة..

وحدث شيء وقتئذ، ولكن لوبين لم يتبينه تماماً.. وقد يكون ذلك الشيء نظرة ذات مغزي، أو وكزة بالذراع أو بالقدم أو إيماءة خفيفة من جيمس براثر.. فقد كف سام جفريز عن الاسترسال بغتة.. ولم يكن ينظر إلى براثر أو إلى غيره من الحاضرين، ومع ذلك فقد بدت عليه علائم التفكير العميق وخبأ تألق عينيه فغدت نظراتهما باردة جوفاء..

ونهض الشابان عندما قدم لهما لوبين جيمس براثر، فصافحاه في جمود وبغير احتفاء.. وظل سام واقفاً ثم قال لرفيقه:

- يحسن أن ننصرف الآن يا جو..

- كما تشاء..

فقالت أفالون، وهي تعلم أن الشابين قد عقدا النية على الانصراف:

- لا تذهبا الآن.. فإنكما لم تمكثا إلا لحظة وجيزة.

بينما قال لوبين: أتمضيان الآن والحفلة على وشك الابتداء؟

فقال سام:

- إنك تعلم يا لوبين أننا قد عدنا للتو من رحلة طويلة، وينبغي أن يبحث كل منا عن فتاته.. خصوصاً وأن الآنسة دكستر مشغولة معك..

وتصافح الجميع ثانية.. ومضى الفتيان في طريقهما..

وتقدمت كاي نايتللو نحوهم لتحيي لوبين وأفالون، ولكنها لم تمكث طويلاً.. فما كادت تنصرف حتى قال لوبين لبراثر:

- والآن حدثنا عن الدكتور زلرمان.

فلم تطرف عين براثر، ولم يبد عليه القلق والاضطراب وهو يقول:

- وماذا يمكن أن أقوله عنه؟ إنه طبيب نفساني.. وقد يكون

بارعاً.. ولكنه على أية حال يتقاضي أجوراً عالية.

– حسناً.. دعنا منه الآن، ولننصرف إلى ضرب آخر من التسلية..

فرفعت أفالون حاجبيها دهشة، وقالت:

– وكيف تنوى أن تفعل ذلك؟

فابتسم لوبين في دعة، وقال:

باختبار معرفتي باللغات يا عزيزتي..

ثم مال نحو براثر وحدجه بنظراته قائلاً:

– فمثلاً هل تعرف كلمة «كوجاك»؟

فلما أخلد الرجل إلى الصمت، استطرد لوبين مفسراً

– إنه اصطلاح يطلق على زهر نبات معين يزرع غالباً في آسيا.. فعندما يجف ساق النبات، وتتساقط أوراقه تفرك الزهرة الهشة بالأصابع وتتحول إلى مسحوق هذا الذي يسمى «كوجاك».

فقالت أفالون: ما الذي تتكلم عنه؟

– أعتقد أن مستر براثر يمكن أن يفهم ما قلت..

فاختلجت أهداب براثر وقال: إني آسف.. فلست أفهم ما تعنيه.

– آه! هذا لا يهم.. فلنتحدث أذن عن شيء آخر..

ولاحظ لوبين في تلك اللحظة، أن كاي نايتللو، وكانت تقف في ركن قصي، قد غادرت القاعة من باب خلفي.. بل أشار لها براثر إشارة خفيفة لم يرها هو (أي لوبين)؟

ثم استطرد قائلاً: لا ريب أنك تحيا حياة مشوقة يا مستر براثر باتصالك معظم موانئ العالم.

فحملق فيه براثر، وقال:

– إنك تتكلم بالأحاجي والألغاز يا لوبين. فلست أفهم الذي تعنيه.

ولم يكن ثمة مجال للشك في صدق الدهشة التي ارتسمت هاتين العينين الزرقاوين، مما دعا لوبين إلى التمهل في هجومه.. فقد كان استنتاجه عن العصابة التي يريدها أن براثر هو أحد الأركان الهامة فيها.. وقد أكد جفريز هذا الرأي في حديثه الذي لم يتمه عندما قال لأفالون: «وكان هناك ذلك الرجل الذي ينبغي لنا في شنغهاي» فإن ذلك كان يتفق مع نظرية لوبين (لقد أرسلني جورج...).. فقد تم الاتصال بين جفريز والعصابة هنا، وتزويده بالتعليمات اللازمة، مما دفعه على الحساب.. ثم استلام لفافة كبيرة أو في أحد موانئ الشرق، وإحضارها لتسليمها إلى براثر في نيويورك. لقد كانت النظرية سليمة

من الوجوه..ومع ذلك فإن الدهشة التي تبدت في الرجل تدل على أنه لم يفهم تلميح لوبين حقاً..

كان براثر أبرع مما يبدو عليه؟ وهل كان يؤدى دوراً معيناً لتضليل لوبين وإبعاده عن الأثر الصحيح؟ أم أنه لم يفهم غرض لوبين حقاً؟ ولكن إذا كان الأمر كذلك فلماذا حضر إلى الملهي رأساً عقب الزيارة التي تلقاها من اثنين من البحارة عادا من الشرق توا؟

لا ريب أن لمستر براثر صلة بهذا الأمر.. وعلى لوبين أن يحدد هذه الصلة تماماً.. فاستطرد قائلاً:

– حسناً.. هذا لا يهم أيضاً.. فلدينا أشياء أخرى أكثر أهمية لنتحدث عنها. ولكن يجدر بنا أن نملأ كؤوسنا ثانية..

ثم عاد الساقي وأمره بإحضار ثلاثة كؤوس أخرى من الويسكي الذي كانوا يشربونه، وبعدئذ أردف يقول لبراثر وهو يبتسم:

– إنني لم أكن أصيد في الظلام حقاً، ولكني أعتقد أن ملاحظاتي لم تتجنب الصواب فأجاب براثر:

– مهما كان ما تقوله فإنني أحب حديثك... فإن لك صوتاً مشوقاً جذاباً.. ومع ذلك فلست أرى ما الذي يدعوك إلى إنفاق وقتك معي..

– هل نسيت أنني لا أزال أجرى تحرياتي عن الدكتور زلرمان؟

قهقه براثر وقال:

– لقد نسيت حقاً.. آه.. ها هو الشراب قد حضر..

وكان الساقي، هو رجل وحشي الصورة أشبه بحداد القرية، قادماً نحوهم ومعه أقداح الشراب.. ولكن عين لوبين المدربة تبينت التغير الذي وقع للساقي وللشراب معاً.. فقد كان الساقي عندما تلقى أمره وهرع لتنفيذه يبدو خادماً دمث الخلق شأن من يرغب في إرضاء الزبائن.. أما الآن فقد حضر وعلى محياه دلائل التحفز للشر.. كما أن الشراب الذي جلبه لم يكن الويسكي المطلوب، وإنما كان نبيذاً!..

فلما بدأ يضع الأقداح على المائدة قال لوبين له:

– آسف.. لقد طلبت ويسكي لا نبيذا..

فقال الساقي في قحة: ماذا؟.. هل تريد إثارة المتاعب؟..

– كلا.. بل أريد فقط الشراب الذي طلبته..

– بل يخيل إلى أنك تريد العراك، فقد طلبت نبيذا، والآن تتكلم عن الويسكي فما الذي تسعى وراءه؟

– لا شيء.. إنني أحاول الحصول على الشراب الذي طلبته..

– وماذا أفعل بهذه الكؤوس؟

– إذا كنت قد أخطأت فإني مستعد لتحمل ثمنها.. أما إذا كنت قد تعمدت الخطأ فيمكنك أن تسكبها فوق رأسك فتطلع إليه الساقي في قحة بادية، ورفع الأقداح ثم مضى بها.. بينما ظل لوبين محتفظاً بهدوئه، وراح يتحدث عن الصور المنقوشة على الجدران بريشة مستر بيرفيلد الذي ينبض بالأنوثة!

فلما حضر الساقي ثانية، كان من الواضح أن في الأمر شيئا فلما نبهه إلى ذلك ثار متوعداً وأبى أن يستبدله، وأشار إلى مدير الملهي فحضر على عجل سائلاً عما حدث.. فلما أخبره لوبين بشكواه قال في ترفع:

– إذا كانت الخدمة هنا لا تعجبك فلماذا لا تنصرف؟.

– ولماذا..

– لا شيء.. فإننا نحتفظ لأنفسنا بالحق المطلق في رفض تقديم الشراب لأي شخص وهاك اللافتة التي كتب عليها ذلك.

ثم أشار إلى لافتة صغيرة معلقة فوق (البار)..

– إذن فأنتم ترفضون تقديم شيء لي؟

– لن نستخدم هذا الحق إذا لم تثر المتاعب.. وهذا آخر تحذير لك..

ثم أشار إلى الساقي بيده قائلاً: أحضر له ما طلب..

ومع ذلك فقد عاد الساقي للمرة الثالثة بغير الشراب المطلوب، فما كاد لوبين يراه حتى قال وهو يبتسم في جذل:

– لقد صبرت عليك كثيراً يا بني، وتلقيت قحتك وسلاطتك في صبر وحلم.. ولكني أحذرك بأنك إذا لم تجلب لنا الشراب المطلوب في المرة القادمة، فسوف أجعل والدتك تندم على أنها لم تؤدبك قبل أن أتولى عنها ذلك.

– إذن فأنت تبغي العراك؟.. حسناً.. هالو جاك! فكف عامل البار عن العمل الذي كان بيده.. وكان يبدو أنه هو المسمى جاك.. وكان عملاقاً يبلغ ستة أقدام ونصف طويلاً، عريض المنكبين، بادى الشراسة، كأنه مصارع قديم وما لبث أن خرج إلى ساق ثان بأن يتبعه..

ولم يتحرك لوبين من مكانه قيد شعره، كما لم تغب الابتسامة عن شفتيه، وظل يرقب الكتيبة التي تحركت نحوه، كما يرقب ملهاة مسلية، وهو يزن قوتهم وسرعة حركاتهم.

وكان يرى اهتمام في عيني براثر، والقلق مرتسماً في أسارير أفالون ويديها المنقبضتين في توتر.. ومع ذلك.. ظل كما هو حتى دنا منه جاك ورفيقه وقال في هدوء:

– هيا اخرج من هنا..

فلم يتحرك لوبين، وإنما تظاهر بالدهشة، وقال:

– ماذا؟ ما معنى هذه القحة، يجب أن يحضر المدير حالاً ليفسر هذا المسلك.

– إن المدير ليس في حاجة إلى تفسير شيء. فسنتولى نحن التفسير اللازم.

– إذن افعل يا بني.. وعجل..

– وعندئذ قالت أفالون: ما معنى هذا يا جاك؟

– إن المدير لا يريده هنا، وهذا كل شيء.. وسوف نلقى به خارجاً إذا لم ينسحب في هدوء..

ثم تحول إلى لوبين قائلاً:

– اسمع.. هل تريد أن نجعل وجهك مستوياً كالفطير؟

لم تذهب إلى الشيطان بوجه سليم؟

فأشار لوبين على المائدة أمامه وقال:

– ولكني لم أفرغ من احتساء شرابي.. وكذلك صديقتي؟

– يمكنها أن تنتظر.. ولكنك أنت الذي ستخرج.. فابتسم لوبين في سخرية وقال: لقد كنت دائماً أعجب مما يدفع بعض الحمقى إلى طلب المستحيل.. فينبغي أن يعلم كل شخص هنا أنني لن أخرج إلا

مع مس دكستر..

– هل تريد أن تخرج على قدميك أم محمولاً على الأعناق؟

وكان جاك يقول ذلك في هدوء تام كأنما يلقى سؤالاً عادياً طبيعياً..

وعندئذ نهض لوبين في تراخ وهو يقول:

– معذرة يا مستر براثر، فقد بدأ حديثنا يشوقني كثيراً.. ولكني سوف أكون معك بعد لحظة.. فهؤلاء الأولاد قد أقلقهم الانتظار ويجب أن أفرغ منهم أولاً..

ثم تحول إلى جاك، وأردف: ما ينبغي أن تكون ولداً شريراً يا جاك.. هكذا حذرك أبوك من قبل.. فاذهب الآن والعب مع رفاقك ولا تحاول قطع الحديث على من هم أكبر منك سناً..

فأشار جاك إلى الساقين، وتقدموا جميعاً دفعة واحدة.. ولكن لوبين أسرع في حركة خاطفة بالقضاء على الساقي الذي جاء مع جاك، فصوب إلى وجهه لكمة جمع فيها مائة وثمانين رطلاً من العضلات الفولاذية، فطوحت بالرجل إلى الجدار حيث جلس ممدود الساقين جاحظ العينين فاغر الفم تحت صورة من رسم مستر بيرفيلد..

وانتهز جاك هذه الفرصة الخاطفة فانقض على لوبين وطوقه

بذراعة في قوة شديدة شعر بها لوبين حول خصره ككلابة من الحديد.. وفي الوقت نفسه انهتز الساقي الثاني الفرصة ليركل لوبين في بطنه.. ولكن لوبين انحنى إلى الإمام وأمسك بركبة الرجل وراح يثنيها في عنف فلم تمض لحظة حتى سمع الحاضرون صوت طقطقة العظام وهي تنخلع من مكانها، كما سمعوا الصيحة التي انبعث منه أشبه بعواء ذئب جريح..

وعندئذ تفرغ لوبين للسيد جاك.. فخلص نفسه من قبضته ثم تحول فلكمه بيسراه في فكه لكمة جعلته يرفع قامته، ثم ثنى بينماه في بطنه فجعلته ينحني من فرط الألم.. وتوالت اللكمات على هذا المنوال حتى غدا جاك أشبه برجل مفرط الأدب يوالي الانحناء أمام سيد له عالي القدر!..

وبلكمة قاضية، انزلق السيد جاك على ظهره بين الموائد مستقراً في وضع مريح وهو يحدق في السقف بعينين جامدتين..

وعندئذ تحول لوبين نحو أفالون، قائلاً في مرح:

- هل تحبين أن ننصرف يا عزيزتي؟

ولقد رأى لوبين فيما حدث في الملهى من تعمد التحرش به والاعتداء عليه، دليلاً جديداً على أن أفراد العصابة رأو في اهتمامه

بأمرهم ما يقلقهم.. فإنهم بعد أن كشفوا شخصيته، وتبينوا أن له غرضاً معيناً في التدخل في شئونهم، لم يستطيعوا الصبر على فضوله، ومن ثم بدأوا يناصبونه العداء سافراً.. وإذا كان لوبين في حاجة إلى تعديل خطته بعد ذلك، فإنما كي يكون حذراً في المستقبل.

وقد فشل في معرفة المزيد عن موضع مستر براثر الصحيح في تلك المغامرة، أو العلاقة بين سائر أفراد تلك العصابة التي يحاول لوبين الكشف عن خفاياها.. بل إنه فشل أيضاً في معرفة حقيقة الدور التي تلعبه أفالون دكستر نفسها.. فعلى الرغم من توثق الصلة بينهما، فإنه لم يستطع معرفة شيء عنها أو منها.

ومع ذلك فإنه عندما اتصل بها في التليفون في الصباح التالي، كان صوته مشبعاً بالعاطفة الحارة والحب الملتهب وأجابت تحيته قائلة:

– طاب صباحك يا عزيزي.. فكيف حالك اليوم؟

– إنني شديد الانفعال!

– ولماذا يا ترى؟

– لأنني على موعد للغداء!

فتنهدت الفتاة في أسى، وعندئذ ضحك لوبين وقال:

– مع فتاة جميلة.. اسمها أفالون!

فشهقت أفالون من الفرح، وهتفت: آه!. ولكنني لا أنوي الحضور!

– محال.. فإنك مدعوة معي للغداء مع الدكتور زلرمان

– هل اتصلت به؟

– إنه هو الذي اتصل بي ثانية فلم أستطع التخلص منه هذه المرة.. والواقع أنني عولت على تلبية الدعوة لأن إلحاحه هذا قد أقلقني، وأود أن أعرف المزيد عنه.. ولا أعتقد أنه قادر على تدبير مؤامرة في مطعم (٢١) الفاخر..

– وهل الدعوة هناك؟

– نعم وسوف أمر بك في الساعة الثانية عشر تماماً.. وفي الموعد المحدد، كان يجتازان باب المطعم.. فلما سأل لوبين عن المائدة المعدة لهم قيل له إن الدكتور زلرمان ينتظرهما..

وكان الطبيب يقف في انتظارهما وهما يجتازان القاعة الكبرى نحوه، وقد بدا بطوله الفارغ وثيابه الأنيقة ورأسه المرفوع المجلل الشيب أشبه بفرسان العصور الوسطى..

وهش لهما قائلاً: يا عزيزي مستر لوبين ويا عزيزتي الآنسة دكستر..

شد ما يسرني أنكما حضرتما في الميعاد.. هل جلستما؟

فجلس الثلاثة حول المائدة واستطرد الطبيب: إنني يا مس دكستر أجد لزاماً على أن أعتذر عما فرط مني في تلك الليلة..

فأجابته الفتاة:

– لا عليك يا دكتور.. لقد نلت جزاءك..

فتورد وجه الطبيب قليلاً وهو يلتفت إلى لوبين قائلاً:

– واعتذاري لك أيضاً يا سيدي..

فغمغم لوبين: العفو يا دكتور!

وأردف زلرمان يقول:

– يمكننا أن ننسى هذا الأمر بأجمعه، ونغدو أصدقاء، حتى نستمتع بالطعام فإنني أتناول طعامي هنا دائماً لأنه يقدم أصنافاً ممتازة و..

ومضى الحديث على هذا النحو، بينما كان لوبين يجوب القاعة بنظراته المستطلعة ويرقب الخدم وهم يروحون ويغدون في خفة وسرعة بثيابهم النظيفة الأنيقة..

وطلب الدكتور زلرمان أقداحاً من النبيذ الفاخر قبل الطعام، فقال لوبين:

– إنه جميل منك أن تدعونا للغداء.. فقد كان عمي يقول إن الطعام المجاني هو خير الأطعمة وألذها!..

– ولكني أشعر يا مستر لوبين أنك قلما تدعني إلى الطعام، لقلة من يجاملونك.

فلم يزد لوبين على أن هتف: آه!..

وحول عينيه إلى أفالون وهي تجلس في هدوء، وقد اتسعت عيناها في دهشة وتساؤل.. على حين طرق الطبيب موضوعاً جديداً فقال:

– لقد تعلمت أشياء كثيرة من عملي كطبيب نفساني، منها أن الإنسان يعطى في الحياة أكثر مما يأخذ..

واسترسل الطبيب في بسط نظريته والتدليل عليها بأن مستوى المعيشة يتقدم باضطراد وأن الجيل المعاصر يعيش عيشة أفضل مما كان يعيش أجداده، مما يدل على أن بعض الناس أنفقوا من جهودهم ومن عصارة أفكارهم أكثر مما نالوه لقاء ما أنفقوا..

وكان لوبين يتساءل في قرارة نفسه عن الهدف الذي يرمى إليه الطبيب من وراء هذا الحديث.. فما من ريب أنه لم يدع لوبين وأفالون للغداء كي يبسط لهما نظرياته الفلسفية ولكن لينتظر قليلاً، فسوف يسفر الطبيب عن أغراضه.. ولا بأس من أن يلمح له بكلمة ليدفعه

إلى كشف أوراقه.. فقال: ولكن هل سمعت عن الشرق يا صديقي؟

– لست أفهم ما تعنيه تماماً..

– إن مستوى المعيشة في الشرق لا يزال في حالة تبعث على الأسى.. ولا يزال الملايين من هؤلاء الناس ينفقون جهوداً مضنية في سبيل العيش.. فما الذي ينالونه لقاءها؟

فلوح الطبيب بيده، وقال:

– ما الذي ينالونه، الحياة يا عزيزي مستر لوبين.. الهبة الوحيدة التي يستمتع بها الإنسان في حرية. فإذا لم يحسنوا الاستمتاع بها فهذا شأنهم.

– أتعني أن إرادة الإنسان فوق كل شيء، ولكنني أستطيع أن أكون رئيس الجمهورية، أو حارساً للكلاب؟

– هذا يرجع إليك وحدك..

– مهلاً يا صديقي.. دعنا نبحث حالة شانج مثلاً..

– فارتفع حاجبا الطبيب ثانية، وغمغم: شانج؟

– نعم.. فيحكى أن السيد شانج هذا راح يدخن غليونا من الأفيون ذات مرة على سبيل التفكة والتسلية.. وكان ذلك بمحض إرادته.. ولكنه أعاد الكرة ثانية وثالثة ولم يكن ذلك بمحض إرادته الآن وإنما

بإرادة بعض الناس الذين يريدون الكسب من ورائه.. وانتهى أمر شانج بأن غدا مدمناً، وهجر أسرته، وبيته، وكل شيء.. فأين الإرادة الحرة يا سيدي الطبيب إذن؟

– لقد كانت إرادته هي التي دفعته إلى التدخين أول مرة..

– ليس تماماً.. فبعض الناس هم الذين يسروا له ذلك وجعلوا المخدر في متناول يده.. ودعنا من شانج والملايين من أبناء بلدته، وتعال بنا إلى مستر جورج الذي يقطن في نيويورك..

– إن مجرى أفكارك يدهشني كثيراً يا مستر لوبين..

– لا شيء من ذلك يا عزيزي زلرمان.. فالواقع أن حالة شانج في الصين هي نفسها حالة جورج أو جاك في نيويورك. وحتى أمريكا الجميلة لا تعدم أناساً لا يبالوا بالوسيلة التي يجمعون بها مليوناً من الدولارات ما داموا يجمعونه ولا يكترثون للضرر الذي يصيب الغير من جراء ذلك، وجورج أو جاك هو الرجل الذي نسعى «نحن» وراءه، ولن نعدم أن نجده في أوساط الأشقياء واللصوص والنشالين الذين يحبون أن يدخنوا علينا عقب يوم حافل بجلائل الأعمال..

فمال الطبيب إلى الإمام، وقال في لهفة:

– من هم «نحن» يا مستر لوبين؟..

– لنفرض أننا نحن الجالسين حول هذه المائدة، لمجرد فهم المناقشة.

فقالت أفالون:

– أما أنا فلا.. فإن لدى من المشاغل الخاصة ما لا يحتمل المزيد.

واستطرد لوبين:

الحالة تنقسم مهمتك إلى شطرين أولهما نقل المخدر إلى هنا، والثاني بيعه.. فإذا أمكنك حل المشكلة، الأولى، بقيت الأخرى.. ولكن كلاهما ميسور.. فمن الذي يذهب ويعود من الشرق الآن؟ البحارة طبعاً.. وفي وسعهم إحضار البضاعة معهم.. أما العميل فأمره، إذ المدينة ملأي بالأوساط الدنيا التي ترحب بغليون من الأفيون..

– بالله هذا ما أريد أن أعرفه بالمثل يا دكتور..

فقهقه لوبين في جذل، وقال:

– لست أدرى إلى أين يقودنا هذا الحديث يا مستر لوبين؟..

وران الصمت فوقهم لحظة راحوا خلالها يرشفون كؤوسهم، ثم يطلبون غيرها، حتى قال الطبيب أخيراً:

– أحسب أن من هواياتك يا مستر لوبين، بحث الجرائم الغامضة التي تذكر الصحف نبأها... فمثلاً مصرع ألبرت فولى بحى بروكلين

يحيرني كثيراً لشدة غموضه..

فجذب لوبين نفساً طويلاً من لفافته وراح يفكر في سرعة.. إن الطبيب يدفعه إلى الموضوع دفعاً، وهي نتيجة ثم يكن يتوقعها لوبين.. ولكن إذا كان الأمر كذلك، فلتكن مشيئته إذن.. فقال:

– نعم.. فحتى في هذه الأيام ذات الرزق الوفير...

ينبغي أن يحزن الطبيب عندما يفقد أحد مرضاه..

– إنني لم أكن أفكر في المال الذي أربحه منه..

وكف الطبيب عن الاسترسال بغتة، ثم أردف:

– كيف عرفت أنه كان ضمن مرضاي؟..

– رأيت اسمه في مفكرة المواعيد بعيادتك..

– ولكن قل لي يا مستر لوبين.. متى جئت إلى عيادتي؟

فتظاهر لوبين بالدهشة، وأجاب:

– آه!.. حسبتك تعلم ذلك.. فقد اقتحمتها مساء الخميس الماضي..

الفصل السادس

وجم الدكتور زلرمان لحظة أن سمع هنا الاعتراف، وراح ينظر إلى لوبين في برود قبل أن يقول:

– هل من عادتك اقتحام بيوت الناس؟

– لست أسميه عادة يا صديقي، فإن هذه الكلمة تعنى الحمق والغباء... والواقع أنه ليست لي عادات معينة قط، إلا إذا كنت تدعو التنفس عادة.. فهو عادة أتعلق بها تعلقاً شديداً وليس في نيتي التخلي عنها.. وقد صادفت الكثيرين ممن أرادوا أن يحملوني على إبطالها، ولكنهم الآن في عداد الراحلين الأعزاء، نزلاء الجحيم.

فهز الطبيب رأسه، وقال:

– ولكنك تعلم أنك ارتكبت جريمة شنيعة، بالسطو على عيادتي..

– إنني أعترف بأنها تعد جريمة من الوجهة القانونية.. ولكني

حسبتك تفهم ظروفي، فإنني لم أفعل غير تطبيق نظريتك، إذ أطعت حافزاً خطر لي..

– ولكنني باعتباري ضحية هذه الجريمة من حقي أن أطلب منك إيضاحاً..

– ألم أقل لك إنني كنت أطبق نظريتك؟ ولكن هل مستر فرديناند بيرفيلد هو الذي رسم تلك اللوحات؟

فظل الدكتور زلرمان على جموده، وقال:

– دعك من هذه الفلسفة، فهي شيء آخر... وحتى يعتنق العالم هذه النظريات فإن القانون هو القول الفصل.. وطبقاً للقانون يا عزيزي لوبين، تكون قد ارتكبت جريمة يعاقب عليها..

– ألا ترى أنك تغالي في تصوير الأمر يا أرنست؟

– إنني أريد أن أتأكد من أنك تفهم موقفك على حقيقته.

– حسناً.. لقد ارتكبت جريمة إذا.. وقد سطوت على عيادتك، كما سطوت على مسكن المرحوم ألبرت فولي أيضاً، وقد حيرني مصرعه كما حيرك يا عزيزي أرنست.. فماذا تريد؟

وعندئذ حول الطبيب رأسه ونظر إلى ناحية معينة من القاعة ثم

أشار بأصبعه..

وتبع لوبين إشارته هذه فرأى رجلين يجلسان إلى مائدة بعيدة، يهمان بالنهوض، وقد راح أحدهما يدفع شيئاً صغيراً أسود اللون تحت المائدة.. وما لبثا أن راحا يشقان طريقهما بين الموائد متجهين نحوهم، ولم يكن في مظهرهما ومشيتهما أي ريب في أنهما من رجال البوليس السري..

فلما بلغا المائدة، قال لهما زلرمان: هل سمعتما كل شيء؟

فأومأ أقصر الرجلين برأسه..

وانحنى لوبين ونظر تحت المائدة فودج ميكروفونا صغيراً مثبتاً بأسفلها، يمتد منه سلك رفيع ملتصق بأحد قوائم المائدة حتى يختفي تحت البساط، فلما رفع رأسه بعد ذلك، كانت تبدو في وجهه علائم الإعجاب، وقال: هذه يا عزيزي الدكتور مسألة ظريفة... فقد كنت أحسب أننا نتحدث حديثاً خاصاً ولم يخطر لي أن للبوليس دخلاً فيه..

فلم يعبأ به الدكتور زلرمان، وقال للشرطيين:

- هذا الرجل هو أرسين لوبين، المجرم المعروف الذي تطلبه حكومات دول كثيرة في العالم بتهم عديدة من السطو والسلب والابتزاز وغير ذلك..

- إنها مجرد شبهات يا عزيزي، وليست تهما ثابتة.. فتحول أحد الشرطيين إلى لوبين، ووضع يده على ذراعه قائلاً:

- يحسن أن تأتى معنا...

فقال لوبين في هدوء، بلهجة آمرة: مهلاً لحظة.. ثم نظر إلى زلرمان، وقال: لقد استقيت معلوماتك من مصدر ما، ولم تستنتجها من تلقاء نفسك، حتى تنصب لي هذا الشرك.. فهل أفالون هي التي أرشدتك؟

فصاحت الفتاة: أواه يا لوبين؟ كلا يا عزيزي.. كلا...

وكان صوتها متهدجاً، تبدو فيه اللهفة والاستنكار.. ولم يعرف لوبين إن كان ذلك حقيقة أم تمثيلاً! ولم يحاول النظر إليها، إذ كان يحدج الطبيب بأنظار متفرسة..

فقال هذا:

- يكفى أن يفهم المرء عقلية معينة، حتى يدرك أفعال صاحبها جميعاً... فقد زرت مسز جيرالد ملدون وجيمس براثر... وكان هذان صاحبي اثنين من الأسماء الثلاثة المدونة... بمفكرة المواعيد.. فيتبع ذلك أنك زرت ألبرت فولي أيضاً.. وكان من الواضح أنك أنت الذي أبلغت النبأ إلى البوليس تليفونياً، إذ كانت كلماتك مما يتفق وأسلوبك تماماً.. ولقد علمت أن شخصاً ما كان موجوداً في عيادتي في الوقت

الذي لا يجب أن يكون بها أحد قط، فارتبت في أنك ذلك الشخص الذي لبى نداء التليفون.. ولكن كان ينقصني أن أسمع اعترافك بما يؤيد استنتاجاتي هذه.. فارتسمت على فمم لوبين ابتسامة عريضة، وقال في جذل: لقد فهمت.. وإنني يا عزيزي أرنست قد ازددت إعجاباً ببراعتك، وتضاعف تقديري لمواهبك.. وسوف أنهج في الحياة نهجاً آخر في المستقبل.

– هذا إذا اتسعت لك يا لوبين.. فقد كان فولي قتيلاً عندما تركت مسكنه، والبوليس دائب البحث عن قاتله... ولا ريب أنك تعلم أن القتلة في هذه البلاد ينتهون فوق كرسي مريح..

– ليس في هذه المرة أيها الساحر الكهل..

ثم التفت إلى الشرطيين، وقال:

– هل نبدأ رحلتنا إلى سنغ سنغ؟

– تعبس أطولهما تامة، وقال في خشونة: هيا... هيا....

فلما استوى لوبين على قدميه، نهضت أفالون واقفة بجواره، فراح يتفرس في عينيها بنظرات عميقة ساخرة دون أن تطرف الفتاة أو تتزعزع... وأخيراً غمغمت.

– إنني لم أفعل يا لوبين.. لم أفعل..

فقبلها لوبين قبلة خفيفة، وقال:

– كوني بنتاً طيبة.. ولا تنسى أن تأكلي نصيبي...

– ولكنك لن تذهب هكذا كالحمل.. ألا تحاول أن تفعل شيئاً للدفاع عن نفسك؟

فاتسعت ابتسامة لوبين، وقال:

– هذه مشيئة الله يا بنيتي!.. شكراً على الشراب يا دكتور!

ومضى مرفوع الرأس منتصب القامة بين الشرطيين، دون أن يثير مرورهم بين الموائد إلا القليل من انتباه الحاضرين.. ولم يفته أن يفكر في وسيلة بارعة للفرار من الشرطيين عندما يخرجون إلى الطريق.. ولكنه من جهة أخرى لم يرى جدوى في أن يغدو هارباً من وجه العدالة تطارده قوات البوليس وتعوقه عن إتمام مهمته.. ومن يدري؟ فلعل لوبين كان يخفي وراءه سيلاً متدفقاً من الأفكار والخواطر ولكن قناع الهدوء وقلة الاكتراث الذي كان يكسو وجه الدكتور زلرمان قد أمعن في تطبيق نظرياته النفسية واستنتاجه فحدس مقدماً أن لوبين سوف يحاول الفرار، فأعد لذلك مشهداً مسرحياً جديداً؟.. أو لعله الآن يجلس في المطعم هادئاً وقد أصاخ يسمعه مترقباً دوى طلقات

الرصاص التي تريحه من تدخل لوبين إلى الأبد..

وكذلك لفظ لوبين فكرة محاولة الفرار.. وقنع بالانتظار والأمل في أن تكون (الزنزانة) التي سيودعونه بها في السجن ذات نافذة على الفناء!..

ودعا الشرطي الطويل عربة، وألقى أوامره على سائقها بصوت خافت، ثم جلس فيها لوبين بين الرجلين فدرجت بهما.. وبعد برهة قال لوبين للشرطي الذي إلى يساره:

- ما قولك في كأس من (الجن)؟

ولكنه صاح به: اصمت!..

ومضت دقائق، وإذا بالشرطي الطويل ينظر إلى ساعته فقال لوبين:

- على فكرة.. ما هي الساعات المحددة للزيارة في سجنكم؟

فصاح به كزميله: اصمت!..

وطال سير العربة.. واجتازت سنترال بارك ثم عرجت على البحيرة، وأخيراً مضت تسير بجوار حديقة الحيوانات فنظر لوبين نظرة ذات مغزى إلى الأقفاص، ثم قال: ما هو الموعد المحدد لعودتكما؟

وعندئذ صاح به الرجلان معاً: اخرس!..

فأشعل لفافة، وراح ينفث دخانها في تفكير عميق، وهو يعجب إلى

أين يمضى الشرطيان به! وزاد من قلقه أن كان أطولهما لا يفتأ يتطلع إلى ساعته بين لحظة وأخرى.. وخشي أن يكون في نية الرجلين أن يأخذاه إلى أحد السجون البعيدة المنعزلة حيث لا يستطيع الاتصال بأحد.. ونظر الشرطي مرة أخيرة إلى ساعته، ثم صاح بالحوذي: كفى!..

فأومأ الحوذي برأسه، وعاد بالعربة خبباً ولوبين يزداد عجبه بين لحظة وأخرى، حتى بلغ ذروته عندما وقفت العربة أمام فندقه!..

وعندئذ خرج الشرطيان عن عبوسهما وقال القصير:

– حسناً.. هيا اصعد إلى حجرتك..

فقال لوبين ذاهلا: وبعد؟.. ثم ماذا؟

– سوف ترى!

فأومأ برأسه في جذل، ثم أسرع إلى حجرته، فألفى جرس التليفون يرن رنيناً متواصلاً..

وإذا صديقه هاملتون يقول له:

– يحسن بك أن تكون أكثر حذراً.. وإلا فهل تظن أنني لا عمل لي أو لرجالي إلا إنقاذك من المأزق التي تزج بنفسك فيها؟

خيم الصمت فترة طويلة، عقب انصراف لوبين مقبوضاً عليه،

على أفالون دكستر والدكتور زلرمان.. فكانت الأولى مستغرقة في التفكير جامدة الأسارير لا يبين محياها الساكن عما يعتمل في نفسها من اضطراب.. على حين كان الطبيب يداعب بأصابعه الدقيقة كأس الشراب وينقر على علبة سجائره الذهبية وهو يجيل في القاعة نظرات متراخية على غير هدى ودون قصد معين.. وأخيراً قال: إنني أسف..

وشفع ذلك بابتسامة ملؤها العطف والشفقة، فهزت الفتاة كتفيها قائلة: ولماذا تأسف؟

– إنني لم أكن أود يا مس دكستر أن أسبب لك حزناً أو أحطم فؤادك.

– ولكن لا أعنى بغير نفسي يا دكتور..

– هذه يا عزيزي أعظم ميزة فيك.. فإن المرء لا يتوقع من فتاة مفرطة الجمال مثلك أن تكون متعلقة بالحب وهذه الأوهام الأخرى.. إذا كان لي أقول ذلك.

– لك ذلك يا دكتور.. ومهما يكن من أمر ما تقول فإنه يفتح لي باب الخروج.. وداعاً.. فرفع يده الناصعة البياض، وقال.

– لا تذهبي.. فإنك لم تتناولي طعامك بعد!..

– لست جائعة..

– إذن أصغى إلى قليلاً.. فلدى معلومات قد يكون من صالحك أن تعرفيها..

واستطرد الطبيب:

– إنها بشأن مستر لوبين... وعلى الرغم من أنه يسرني أن أصارحك بأنني أهتم اهتماماً شخصياً بسعادتك ورفاهيتك، فإن ما أود قوله لك لا يعدو نصيحة فنية أبديها لك بحكم مهنتي كطبيب نفساني..

فابتسمت أفالون في تكلف بينما استطرد الطبيب:

ما من أحد لا يعترف بأنه شخص يبدو من أبطال الأساطير والأحلام، وله جاذبية مغناطيسية تجذب إليه النساء الخياليات، حيث يتمثل لهن فيه ما ينشدنه من سحر وشهرة ومال ومغامرات ولكن ما أريد أن أقوله يا مس دكستر، هو أن مثل هذا الشخص دائم التقلب، كثير الأهواء والنزوات...

فاتسعت ابتسامة أفالون، بينما تابع الطبيب حديثه:

– كما أن مسلكه في الحياة دائب التعثر في المغامرات والجرائم والأخطار. وقد علمت أن كل من ارتبط معه برباط وثيق، ذكراً أم أنثى، قد لقي حتفه بطريقة ما... وإذا كان قد نجا من الموت حتى الآن، فلا مناص من أن يأتي يوم يا عزيزتي مس دكستر تتخلى عنه آلهة الحظ،

فيرد الهلاك...

فنهضت أفالون بغتة وهي تقول في حنق:

– وهكذا إلى آخره.. ألا دعنا من هذه الفلسفة يا دكتور فقد رأيته بنفسك يتهمني بأنني وشيت به إليك وأطلعتك على حركاته وأفعاله.. ومن ثم فلست أرى خطراً يتهددني من أعدائه كما تلمح لي.. وداعا.

ومضت في خطى حثيثة إلى جراج المطعم، والغضب يعصف بنفسها، فاستقلت سيارة إلى مركز الشرطة لتسأل عن لوبين...

وفيما كانت ترقى في الدرج العريض بإدارة البوليس، إذا بكاي نانيللو وفرديناند بيرفيلد يلحقان بها فيقول الأخير بصوته الشبيه برنين الأجراس: أهلاً بك يا عزيزتي..

بينما لم تقل المرأة شيئاً..

وعاد بيرفيلد يقول:

– لقد كنا نسير في الطريق فلمحناك تصعدين الدرج ولما كنا نريد أن نراك، ودائبي البحث عنك، فقد وجدنا الفرصة سانحة...

فقاطعته أفالون: تبحثان عني؟

وكانت كاي ناتيللو هي التي أجابت بصوتها الشبيه بحشرجة

المنشار: نعم يا أفلون.. هيا هيا يا ابنتي!

فقال فرديناند بيرفيلد: إن لدينا خبراً لك يا عزيزتي، هو أن (ماجنا مونت) سيقوم الليلة بتصوير مشهد في (مقصف كوكي) وسوف نكون جميعاً هناك، كما أنك ستلقين بعض أغانيك.. فهيا بنا لأن كوكي تريد أن تستوثق من أنك ستشتركين في البرنامج قبل التعاقد مع مستر بفيفر؟

– ومن مستر بفيفر؟

– بفيفر المخرج الكبير يا عزيزتي... سوف يخرج لكما فيلماً رائعاً..

فترددت أفالون برهة وهي لا تستقر على رأي معين، أو تجد ما تقوله.. ولكنها قالت أخيراً:

– حسناً.. سوف ألحق بكما بعد قليل. هل أجدكما عند كوكي؟..

– ولكنك ستذهبين معنا... ولا شك أنه ليس لديك ما يهمك في مثل هذا المكان أو نزلائه من المجرمين.. ماذا جئت تفعلين؟

– لقد فقدت مشبكاً ذهبياً وقرطاً في إحدى سيارات الأجرة، فظننت أنه يمكنني السؤال عنهما هنا.. ولو أنه يخيل إلى أنني لن أجدهما..

– ربما... وعلى أية حال فإني قادم معك لمعاونتك في التحدث إلى هؤلاء المتوحشين ذوي الثياب الزرقاء.. وبعدئذ نذهب سوياً!

الفصل السابع

وعندما فتح مستر جيمس براثر باب مسكنه للسيدين اللذين طرقاه، لم يكن يحسب أن سيكون لزيارتهما ذلك الأثر الخطير في نفسه وفي كيانه مثل ما وقع له بعد ذلك..

فعندما سلمها عما يريدانه، وأخبرا أنهما من مندوبي مصلحة الضرائب، أشار بيد مرتعشة إلى الأريكة وأخذت عيناه البارزتان تدوران في محجريهما وهو يقول:

– تفضلا بالجلوس.. هل من خدمة أستطيع أداءها لكما!.. أهناك خطأ في ضريبة الدخل؟

ولكن أحد الرجلين ظل ينظر إلى الأرض دون أن يقول شيئاً، على حين أزاح الثاني قبعته إلى الخلف وراح يحدق في السقف كأن به شيئاً يثير عجبه..

ولم يجلس براثر، وإنما ظل يفرك يديه في اضطراب وهو يقلب نظراته بين الرجلين، في حيرة بالغة.

وأخيراً قال أحدهما في تراخ:

– هل تعرف رجلاً يدعى سام جفريز؟

فقطب براثر حاجبيه، وأجاب:

– جفريز؟.. كلا لا أحسبني أعرفه..

– ولكنه قال إنه جاء إلى هنا لمقابلتك. وكان دقيقاً في وصف المكان..

فازداد قطوب براثر، وسارع قائلاً:

– أوه!.. نعم.. أظنني عرفت من تعنيه.. أجل لقد كان هنا حقاً.. ما شأنه؟..

فرفع الرجل الآخر رأسه، وقال:

– كيف حال شنغاي الآن؟

فاهتزت أهداب براثر سريعاً، على حين استطرد الأول

– وعلى الأخص رقم ٩٠٣ بشارع بابلنج رود؟..

وازدادت اهتزاز أهداب براثر سرعة، ولكنه قال:

– لست أعرف عن أي شيء تتحدثان..

فلم يزد الرجلان عن التنهد متعجبين بينما أردف براثر:

كما أنني لا أعرف سبب اهتمام مصلحة الضرائب بي فمال أكبر الرجلين إلى الإمام قائلاً:

– أعتقد أن سام جفريز قد أحضر لك لفافة ما. أو بضعة لفافات؟.

– نعم.. لقد أحضر لي من شنغاي تمثالاً من الخزف يمثل راهباً شيخاً يحمل سلة ملأت بالسمك.. وهو تحفة فنية حقاً..

– أين هو؟

– أوه!.. لقد أعطيته إلى.. إلى صديقة لي..

فزام الرجلان معاً، ثم مضى أكبرهما قائلاً:

– وأين قابلت جفريز هذا؟

آه!.. لست أذكر تماماً.

فحدجه الرجل بنظرة صارمة ثم قال:

– لقد قابلت سام جفريز للمرة الأولى، وفقاً للمعلومات التي لدينا، في مكان يدعى «مقصف كوكي للبحارة» في ١٨ أغسطس، وفي تلك المقابلة عقدت معه اتفاقاً معيناً قبل أن يرحل الفتى بباخرته.. وفي

٣ نوفمبر قابلك سام جفريز هنا، وأحضر معه جوهيمان.. فلماذا.. وأي اتفاق عقدته مع كليهما؟..

– لو أنكما أيها السيدان تسمحان بإفهامي ما تسعيان وراءه لكان مع المستطاع أن أساعدكما.. ولكنكما حتى الآن تتكلمان على غير هدى وفي غير معنى..

فقال أصغر الرجلين:

– ينبغي أن تجيب على أسئلتنا يا مستر براثر وإلا ففي وسعنا أن نأخذك معنا إلى المدينة، ونثير أمامك الكثير من المتاعب..

– ولماذا؟ .. إنني لا أفهم هذه المهزلة بعد، كما أنكما لم توجها لي اتهاماً معيناً..

– ما الذي تعرفه عن رقم ٩٠٣ شارع بابلنج رود بشنغهاي.. وما الذي قلته لسام جفريز؟.. ومن هو الشخص الذي تأمر بأمره؟..

وكيف تحسب أنك سوف تنجو من هذه الورطة؟..

هذه يا صديقي بضعة أسئلة معينة إذا شئت..

– ولكن.. ولكن..

– فهمت لعل الأفضل إذن أن تأتي معنا يا مستر براثر فراح براثر

يجيل نظراته بين الرجلين، ثم أمعن في التفكير.. وكأنما استمد الجرأة من فكرة معينة طرأت له، إذ ما لبث أن قال في حزم:

– إني لا أعرف ما تسعيان وراءه.. ولكن أعرف أنني مواطن لي من الحقوق الدستورية ما يكفل لي أن أرفض ما تطلبانه ما لم توجها لي اتهاماً معيناً بطريقة رسمية.. ولن أضيف شيئاً إلى ذلك.. فمع السلامة..

فنهض الرجلان متمهلين، وراحا يحدجانه بأبصارهما لحظة طويلة، قبل أن يقول أكبرهما: حسناً.. على رسلك إذن..

وما كاد ينصرفان حتى أسرع براثر بدوره، فاختطف قبعته وهرع إلى الطريق حيث استقل سيارة مضى بها إلى عيادة الدكتور زلرمان ببارك أفنيو..

ولم يسر زلمان لرؤيته، وراح يصغى إلى قصته مقطب الأسارير، وأخيراً قال:

– وهكذا قدتهما نحوي رأساً يا سيد برار!.. لقد كانت هذه خطوة غير موفقة منك..

– إنني لم أقدهما إليك.. فلم يتبعني أحد..

– هل لي أسألك كيف عرفت ذلك؟.. إنك في حالة من الاضطراب

بحيث إذا تبعك فيل لما فطنت إليه...

وتناول زلرمان التليفون، وأدار قرصه على رقم معين، ثم ما لبث أن قال:

– هات اثنين من رجالك وتعال في الحال..

فهمهم براثر:

– ما الذي تريد أن تفعله؟

ولكنه لم يتلق من الطبيب رداً.. فكرر السؤال مثنى وثلاث من فزع ظاهر، دون أن ينال جواباً..

وأخيراً قال الطبيب في صوت بطيء صارم النبرات:

– إن أحد الشروط الرئيسية لمؤسستنا هذه، هي أن يعني كل فرد فيها بنفسه، كما تعلم.. ولكنه بحمقك قد وضعت نفسك في مركز شديد الخطر ولذلك غدا من مصلحة المؤسسة أن تحميك..

– هل تعنى أنك لن..

– أقضى عليك؟.. معذرة يا عزيزي براثر.. لقد كنت أقول لك من الشروط الأساسية لجماعتنا أن نعنى بأنفسنا.. كلا.. كلا.. ولكن هل حدثتني خلال انتظارنا هذا، عما قلته لرجال الحكومة بالضبط؟..

– لم أقل لهما شيئاً، وإنما كان يبدو أنهما يعرفان أكثر مما يتوقع أن يعرفاه.. ولما رأيت أن أسئلتهما قد بلغت حدا خطيراً، فعلت ما يجب فعله وطردتهما..

– ما الذي كان يبدو أنهما يعرفانه؟..

– لقد ذكر جفريز وهيمان، وكان يعلمان أن الفتيين أحضرا لي شيئاً من شنغهاي، وسألاني عما أعرفه عن رقم ٩٠٣ شارع بابلنج رود..

– وقد أنكرت ذلك طبعاً..

– بالطبع.. ولكن كيف عرفاً كل ذلك؟..

– من يدري؟.. إن البحارة إذا امتلأت جيوبهم بالمال يشربون حتى الثمل، ويثرثرون كثيراً.. ومن سوء الحظ أن جفريز وهيمان ما كانا يستطيعان الثرثرة إلا عنك وحدك.. ولكنك لن تفشى السر قط..

فازداد براثر لعابه وغمغم:

– بلا ريب. وإني أعرف ما سألاقيه من متاعب، ولكن إذا لم تتخل عني.

وساد الصمت برهة.. وكان يبدو أن الدكتور زلرمان قد قال كل ما يريد قوله، وأن جيمس براثر كان يخشى أن يقول شيئاً آخر.. وأخيراً جاءت السكرتيرة الشقراء لتقول إن مستر كاربنتر واثنين من أصدقائه

يريدون مقابلة الطبيب، فأمرها بإدخالهم على الفور..

وقدم الطبيب القادمين إلى براثر، ثم قال لكاربنتر:

– إن مستر براثر لسوء الحظ قد استرعى أنظار بعض الفضوليين، بحيث عدا لزاماً أن نضعه في مأمن من الخطر الذي يتهدده من رجال الأمن.. وأنت تعرف ما ينبغي صنعه..

فنهض براثر قائلاً:

– لست أدري كيف أشكر لك هذه العناية يا دكتور زلرمان..

فلوح الطبيب بيده في تواضع وهو يقول:

– هراء.. إنني أؤدي ما يجب لك من حق علينا.. وكان براثر يثنى أصابعه في توتر بينما كانت السيارة السوداء الطويلة تدرج بهم في شوارع نيويورك أكثر من ساعة حتى خلفت المدينة وراءها وراحت تسير في الطريق الزراعية.. وكان يجلس في المقعد الخلفي بين زميلي مستر كارينتر بينما كان هذا يقود السيارة في براعة إلى الهدف المجهول الذي يقصدونه..

فلما مشت بهم السيارة ساعة أخرى، انحرف بها كارينتر إلى ممر جانبي ضيق مضى فيه زهاء نصف ميل، ثم أوقف السيارة ونزل منها وهو يقول:

- هيا بنا..

فتتبعه براثر، في قلق خفي، وسار معه بجانب سياج من الأسلاك إلى بقعة أينعت بالخضرة الفيحاء، وازدهرت بأشجار التفاح.. ولكنه لم ير أثر لبيت أو مزرعة، فوقف مكانه وقال في صوت متهدج:

- إلى أين تأخذني؟..

فتحول كاربنتر ليواجهه؟ وهو يقول:

- سوف تبقى هنا..

وفي مثل وميض البرق، استل مسدساً من جيبه، وسدده إلى قلب براثر.. ولعل الطلقة الأولى كانت كافية، لولا أن السيد كاربنتر، وهو رجل ذو ضمير، تبعها بأخرى حتى يتوثق من موت ضحيته سريعاً..

الفصل الثامن

تسلل لوبين من السلم الخلفي للفندق متسربلاً بالظلام والخفاء، ومرتدياً ثياباً بلية لبحار قديم العهد بالبحار، وقد قوس كتفيه قليلاً حتى يبدو متوسط القامة وليس فارع العود كعهده.

وكان تنكره بارعاً.، فالشمس تلوح بشرته، وتضفى لوناً أحمر على شعره وشاربه والشعيرات النامية من لحيته، بحيث لم يكن في وسع أحد حتى أخص معارفه أن يتبين فيه أرسين لوبين الذي يعرفه ويألفه..

وخرج من الفندق دون أن يراه أحد.. فمضى إلى مقصف البحارة الذي تديره كوكي، حيث راحت حارسة الباب البدينة ذات الشعر المصبوغ تفحص أوراق شخصيته في إمعان شديد، قبل أن تمنحه ابتسامة عريضة بانت خلالها أسنانها الذهبية، وهي تقول:

- يسرنا أن نراك معنا يا مستر سيمونز.. فتفضل بالدخول وعد

نفسك في منزلك..

وتفضل أرسين لوبين بالدخول.. فوجد نفسه في قاعة رحبة ملأي بالموائد الخشبية والمقاعد التي أبلاها طول الاستعمال، وفي ركن منها معزف قديم، وقد زينت جدرانها بنقوش ورسوم يدوية لنساء عاريات، وبقرب المدخل منضدة طويلة عليها بعض الصحف والمجلات الشعبية.. وكان في نهاية المقاعد مقصف طويل وقف خلفه رجلان في ثياب خفيفة، يوزعان الشطائر والحلوى وزجاجات من شراب مرطب خلو من الكحول..

وكانت القاعة مكتظة برجال من أعمار مختلفة، يرتدي أكثرهم ثياباً مدنية بينما الباقون في زي البحارة المعروف، وقد انهمك بعضهم في لعب الورق أو النرد، على حين كان البعض يرقصون مع فتيات خصصتهن كوكي للترفيه عن ضيوفها، وهن فتيات جميلات في مقتبل العمر، يرتدين مراول بيضاء رصعت بنجوم زرقاء وبينها في وشي جميل كلمتا «مقصف كوكي».. وفي الوقت نفسه كان لفيف من الخدم الرجال يرحون يغدون بين الموائد لجمع الزجاجات الفارغة والصحاف المستعملة..

فلما دخل لوبين، سار نحو المقصف وتناول زجاجته وصحفه وشطائره، وتحول نحو القاعة مخترقاً الزحام وسط سحابة كثيفة من دخان السجاير تغلقت تحت السقف المنخفض، وهو يفكر في خطوته التالية وما ينبغي أن تكون..

ووقفت أمامه إحدى الفتيات المضيفات قائلة في مرح:

– هالوا!. هل أخذت كأساً تريده؟..

– نعم.. شكراً أيتها الآنسة..

آه!.. لا ريب أنك إنجليزي؟..

– تماماً أيتها الآنسة!.. من أولد جيت.. ولكن كيف حدست؟..

– لقد اعتقدت التمييز بين اللهجات المختلفة.. أهذه أول زيارة لك؟

– نعم أيتها الآنسة..

– ومتى جئت إلى نيويورك؟..

– في الليلة الماضية فقط.

– حسناً. إنك لم تضيع وقتاً طويلاً قبل الاهتداء إلينا.. ألك أصدقاء هنا؟

– كلا أيتها الآنسة!.

وكان لوبين ينطق بهذه الكلمات عندما وقعت أنظاره على وجه

يعرفه، كان صاحبه يجلس بمفرده، بعد أن انصرف زميلان له للتو.. وكان الرجل يدفع مقعده ويتلفت حوليه عندما رآه لوبين، فقال للفتاة مستدركاً:

– يا إلهي!.. هذا صديق أعرفه.. معذرة أيتها الآنسة واندفع وسط الزحام، حتى بلغ مائدة ذلك الرجل فوضع زجاجته فوقها وهو يقول:

– مرحي أيها الزميل!.. إنني واثق أني أعرفك.. أليس اسمك باتريك هوجان؟..

فنظر إليه الآخر بوجه ممتلى لا يزال لوبين يذكر حمرة الخجل التي كانت تعلوه عندما قدمته كوكي إلى جمهورها في الليلة الأولى لزيارة لوبين للملهى.. وقال:

– يقيناً يا أخي!.. هوجان هو اسمي.. فما اسمك أنت؟..

– توم سيمونزا..

– لست أذكره.. ولكن لا تبال بذلك.. أين التقينا من قبل؟..

– ربما كان ذلك في مورمانسك، أثناء الحرب؟..

– لا ريب في ذلك. فقد قضيت بها أسبوعين في رحلتين متواليتين..

وكان صوت هوجان مرتجفاً، ورائحة الخمر تفوح من فمه مما ينم

على أنه شرب كثيراً قبل أن يحضر إلى المقصف ونظر لوبين حواليه وهو يقول: يا له من مكان ظريف!

– ليس ثمة أفضل منه في نيويورك كلها يا توم.. كما أن كوكي نفسها.. يالله! إنها ملكة!. وهي تغني تلك الأغاني الجميلة التي تجعل أباك نفسه يحمر وجهه خجلاً!

– يا إلهي! أهي كذلك؟..

– يقيناً إنها كذلك.. لم تسمعها من قبل؟..

– كلا.. هل ستحضر الليلة؟..

– بلا ريب.. سوف تحضر من دقيقة لأخرى، ولهذا جئت إلى هنا.. ولولا ذلك تفضلت كأساً من الشراب وفتاة أقضى السهرة معها..

ثم مال قليلاً نحو لوبين، وقال وهو يغمز بعينه:

– ولكن كوكي تستطيع أن تدبر لك ذلك أيضاً إذا كنت صديقاً لها!

فلعق لوبين شفتيه، وهتف في لهفة:

– يا لله!.. وهل أنت صديق لها؟..

يقيناً إنني صديقها!.. لماذا؟.. لقد أخذتني ليلة السبت الماضي وصديقاً لي إلى ذلك النادي العظيم الذي تملكه، وقدمت إلينا أوفر

قسط من الشراب يمكننا احتماله، فقضينا وقتاً ممتعاً كأنا لوردان عظيمان حتى مطلع الفجر.. وقد قالت إننا نستطيع أن نعيد الكرة كلما أردنا ذلك.. وما دمت صديقي يا توم، فسوف تعاملك بالمثل..

يا إله السموات!.. هل أنت واثق من ذلك؟..

- يقيناً يا صديقي!..

ولو أني أعجب كيف يتلهف كهل مثلك على هذه الأمور!

- إنني لست من الكهولة بحيث أزهد فيها..

وفي تلك اللحظة انحنى شبح فوق المائدة وراح يمسحها بمنشفة ملونة وكانت اليد التي امتدت بها شاحبة اللون طويلة الأصابع، لاحظ لوبين أن أظافرها قد صقلت بطلاء بنفسجي اللون.. فلم يجرؤ على الاعتقاد بأن شيئاً كهذا يمكن أن يكون حقيقياً، وراح يرفع عينيه في حذر حتى استقرنا على ذلك الوجه النحيل والشعر الذهبي..

نعم لقد كان ذلك فرديناند بيرفيلد حقاً..

ونظر مستر بيرفيلد إلى لوبين في إمعان، ولكن لم تبد عليه لمحة تنم على أنه عرف حقيقته.. وما لبث أن حول نظراته إلى هوجان ثم قال:

- أثمة ما تشكوان منه يا صديقي؟..

فشكره هوجان، وعندئذ حياهما بيرفيلد بابتسامة وانصرف..

وما مضت لحظة حتى تبدلت أسارير هوجان، وصاح في ابتهاج:

– ها هي يا توم!.. ها هي كوكي!..

وكانت الأنوار قد بدأت تخفت في القاعة عندما قال ذلك، فبدت كوكي للعيان وهي تتقدم نحو الضوء الوحيد الذي ظل ساطعاً على منصة صغيرة بجوار المعزف.

وكانت على محياها تلك الابتسامة التقليدية التي تقابل بها زبائنها.. وانثنت تحيي الحاضرين وترد على هتافهم بتحريك يدها وخصرها، ثم بدأت ترتل أغانيها المعهودة، واحدة بعد الأخرى، وهي أغاني وقحة مبتذلة يندي لها الجبين خجلاً، والحضور لا يكفون عن الصياح والهتاف في حماسة منقطعة النظير، حتى بح صوتها وتورد وجهها من فرط المجهود الذي تبذله، وتصب العرق منه غزيراً.. وفي خلال ذلك كان لوبين لا يكف عن الهتاف والاستحسان والتصفيق حتى يجيد الدور الذي يؤديه أمام هوجان..

وأخيراً كفت كوكي عن الغناء، وهي تلهث من فرط التعب والجهد الذي بذلته، واتجهت إلى الحاضرين قائلة:

– هذا كل شيء الليلة يا أبنائي.. فإلى اللقاء غداً..

وهبطت من فوق المنصة فاستقبلتها الأيدي بالمصافحة والتلويح في حماسة بالغة.. ونهض باتريك هوجان وهو يدفع المائدة أمامه ويصيح بصوت مدو:

– هالو.. كوكي!..

كانت سترته قد ارتفعت قليلاً عند وقوفه، فرأى لوبين في جيب سرواله الخلفي مسدساً أوتوماتيكياً، من طراز لا يحمله البحارة قط..

وأشعل لوبين لفافة، وهو يفكر في هذا الاكتشاف الجديد، ويحاول أن يفهم حقيقة باتريك هوجان وموقفه في هذه المغامرة كلها..

جلست كوكي معهما فقدم هوجان إليها لوبين قائلاً:

– ها هو صديقي توم سيمونز، وهو بحار كهل وزميل قديم، سكرنا معاً في مورمانسك..

فحيته كوكي، وسألها عن حالها فأجابت:

– إنني متعبة جداً.. ولا تزال أمامي بعد ذلك حفلتان في الملهي الخاص بي..

– لقد استمتعت كثيراً بغنائك يا سيدتي..

– أهذه أول مرة تسمعني فيها؟..

– نعم يا سيدتي..

– نادني بكوكي فقط.. فالكل يفعل ذلك..

فقهقه هوجان في مرح، وقال:

– نعم يا سيدتي..

– أراهنك أنها لن تكون الأخيرة..

وعادت كوكي تسأل لوبين:

– وهل ستبقى طويلاً في نيويورك؟..

– كلا سنبحر يوم الثلاثاء عند العشاء.. وهي أوامر الربان. مع أننا لم نلق المرساة إلا أمس فقط.. أليس ذلك أمراً سخيفاً؟..

– إنه كذلك حتماً.. وإلى أية جهة تقصد باخرتك بعد ذلك؟..

– سنجتاز قناة بنما إلى شنغهاي رأساً ثم نعود إلى سان فرانسيسكو..

فقاطعه هوجان قائلاً:

– ماذا ترين يا كوكي في جرعة من الشراب الجيد تقدمينها لصديقين قديمين مثلنا جف حلقاهما من الهتاف لك؟..

فنفثت كوكي دخان سيجارتها ثم نفضت رمادها فوق المائدة وهي تعاود النظر إلى لوبين في نظرة لا تنم على شيء ولكنه أدرك أنها تفكر في

أمره.. وأخيراً قالت:

- ربما استطعت أن أجد شيئاً من أجلكما..

ونهضت من مجلسها فتبعها هوجان ولوبين، على حين قال الأول مفاخراً:

- ألم أقل لك يا توم؟..

فغمغم لوبين في احترام:

- إنك رجل عظيم يا بات..

ومضيا وراءها من باب صغير خلف المقصف أدى بهما إلى المطهى.. وكان خالياً إلا من مائدة كبيرة رصت فوقها أرغفة الخبز وشرائح الجبن ولحم الخنزير المقدد.. وكانت في ركن منه كومة من الصناديق الفارغة..

وقادتهما كوكي إلى حجرة أخرى داخل المطهي، كانت بالغة الضيق، لا تكاد تتسع للمقعدين ومنضدة الكتابة التي كانت كل أثاثها.. وكانت كاي ناتيللو تجلس أمام المنضدة وهي تكتب على آلة كاتبة قديمة، بأصابع كأنها مخالب الدب. فهتف هوجان في غير كلفة:

- هاللو كاي!.. كيف حال حبيبتي الليلة!؟

بينما قالت لها كوكي:

– لقد حضرنا لنشرب كأساً، فهلا تكرمت بإحضار بعض الأقداح؟..

– فمضت كاي إلى المطهى، وعادت تحمل أربعة أقداح فارغة، على حين أخرجت كوكي من درج المنضدة زجاجة من الويسكي الأسكتلندي بها نصفها.. ثم قال لكاي:

– هذا توم سيمونز يا كاي.. وقد رست باخرته أمس فقط وستبحر ثانية يوم الثلاثاء.

– وا أسفاه!!

– إننا جميعاً ينبغي أن نعمل أيتها الآنسة.. ثم إن العمل في البحر لذيذ ومسل، ما لم تغرق بنا!..

وملأت كوكي الأقداح فشربوا جميعاً، على حين سألت كاي:

– وهل ستبحر قريباً بالمثل يا بات؟..

– في الأسبوع القادم.. سنذهب إلى جنوب أفريقيا والهند وسنغافورة ثم نعود ثانية من الطريق نفسها..

– سوف نشعر بالفراغ الذي ستخلفه بيننا.. وأنت يا توم.. هل أنت عائد إلى إنجلترا؟..

– أوه.. لا.. بل إلى شنغهاي من قناة بناما.. ثم نعود إلى سان فرانسيسكو..

وملأت كوكي كأسها ثانية وجرعتها دفعة واحدة، ثم نهضت قائلة: ينبغي أن أترككم الآن للذهاب إلى الملهي..

ومضت نحو الباب، ولكنها وقفت كأنما نسيت شيئاً واستدارت قائلة: لماذا لا تحضران إلى (القبو) بعد أن تفرغاً من هنا؟

فربت جوهان على ظهرها وهو يهتف:

– مرحى! لقد كنا سنفعل ذلك حتماً، وسنذهب للهتاف لك هناك، أليس كذلك يا توم؟

فصاح لوبين يقلده:

– يقيناً إننا سنفعل يا باني!.. إننا لم نشبع من غنائها بعد..

فقالت كوكي:

– حسناً. سوف أنتظركما.. وعليك يا كاي أن تعني بهما وتحضريهما معك.

واستجمعت شتات جسمها، ثم غادرت الحجرة مسرعة وعملت كاي بنصيحتها، فعنيت بهما..

ولكن لوبين لم يدع نفسه فريسة لهذه العناية البالغة التي انحصرت،

بعد فراغ زجاجة الويسكي، في المرور على عدة حانات في الطريق، واحتساء كأس أو اثنتين في كل منها.. وكان هوجان يزداد ثملاً كلما ازداد شراباً، وراح يغازل كاي ويقول إنها فتاته، وأن فتاة الرجل الأيرلندي هي قلعته.. وكان لوبين يتظاهر بالثمل ولكنه كان ينتهز الفرص ليريق الشراب في أقرب ركن منه، أو تحت الموائد.. أما كاي فما يكن يبدو عليها أي أثر للشراب الذي تناولته، وكانت تستجيب لمغازلة هوجان لها كلما تذكرت أن من واجبها أن تفعل ذلك.

وبذلك استغرق ذهابهم إلى قبو كوكي زمناً طويلاً.. ولكنهم وصلوا إليه على أية حال.. وكان كل شيء كعهد لوبين به منذ ليلتين، ولكنه كان الليلة من الأبطال الذين يستقر فوقهم النور الكشاف وتحييهم الجماهير.

وكانت كوكي تجأر بأغنية بذيئة لم يسمعها لوبين من قبل فقالت له كاي مفاخرة:

- إنها من تأليفي:

فقال لوبين في احترام وإعجاب:

- ما شاء الله!.. سلمت يدك!

وقد قلنا إن كل شيء كان كعهد لوبين في الليلتين الماضيتين على غير

ما كان يتوقع.. فقد كانت أفالون دكستر هناك أيضاً.

ولكنها لم تكن قد جاءت لتعمل، بل جلست كأحد المتفرجين، إلى مائدة في مؤخرة القاعة.. وكان يحس بشعور غريب لجلوسه هكذا رقيباً عليها، دون أن يجول بخاطرها قط أنه هناك، وعلى الرغم من أن نظراتها العابرة كانت تمر به دون وعي.

وما أن فرغت كوكي من أغنيتها حتى مضت وسط هتاف المعجبين، إلى منضدة المقصف حيث كان الساقي قد أعد لها قدحاً كبيراً من الويسكي جرعته سريعاً، وعادت إلى مائدتها؟ وكان معها وقتئذ الدكتور زلرمان.

وبعد أن أتمت التعارف بين الجميع، فقالت للطبيب:

– إن توم سيرحل إلى شنغهاي يوم الثلاثاء..

وكان لوبين يتظاهر بالثمل، فاضطجع في مقعده، وبعض الشراب ثم قال في تثاقل:

– وسوف أي أن كان ما يقال عن الصين وسحرها صحيحاً..

فقال له زلرمان في هدوء، بعد أن تبادل نظرة خفية مع كوكي، لم تفت لوبين:

– في وسعي أن أرشدك إلى بعض الأماكن لتذهب إليها لقد قضيت في شنغهاي وقتاً طيباً قبل الحرب.

وكانت نظراته للوبين متفرسة في إمعان شديد، ولكنه كان يكسوها بلمحة من العطف والشفقة.. وما لبث زلرمان أن تناول كأسه والتفت إلى كوكي قائلاً:

– على فكر.. لست أدرك لماذا لا تدعين مستر هوجار ومستر سيمونز لقضاء بعض الوقت في لونج أيلاند؟ إنهما يستحقان من العناية والرعاية أكثر مما أستطيع أن أقدمه لهما هنا.

فهتفت كوكي:

– يا له من رأي عظيم!.. فماذا تقولان أيها العزيزان؟ إن لي كوخاً صيفياً على شاطئ الاستحمام في سوثاه بثون (بضواحي نيويورك).. ثم إننا لا نفتح هذا الملهي في أيام الأحاد عادة، لذلك أرى أن تأتيا معنا لنسبح في المحيط ثم أعود بكما صباح يوم الاثنين، دون أن تتكبدا سنتا واحداً؟. سوف نذهب جميعاً في سيارة الدكتور زلرمان وسيارتي بمجرد انتهاء العمل الليلة، وسوف أهيىء لكما صحبة طيبة لمرافقتكما.. فستكون أفالون دكستر معنا.

الفصل التاسع

وغمغم لوبين برغبته في الخروج لحظة ليقابل رجلاً كان على موعد معه لشراء كلب منه، ثم غادر المطعم إلى كشك قريب للتليفون فاتصل بالفندق وسأل عن أفالون.

فقيل له إنها ليست موجودة وقتئذ وسأله عامل التليفون عما إذا كان يريد أن يترك رسالة لها.. فسأله لوبين عن موعد عودتها فأجاب:

– لست أدري يا سيدي.. ولكنها تتصل بنا كل نصف ساعة في انتظار رسالة لها.. فهل أنت مستر لوبين؟

فحبس لوبين أنفاسه لحظة، ثم استقر رأيه على شيء فقال: نعم..

– لقد كانت تسأل عنك يا سيدي.. فهل يمكنها أن تتصل بك؟..

– أخشى أن يكون ذلك متعذراً الليلة.. ولكن أخبرها أنني سأقابلها غداً.

فلما عاد إلى الملهى، وجد أنهم اتفقوا على كل شيء من تفاصيل الرحلة، وكانوا في انتظار عودته ليأخذهم زلرمان في سيارته الكبيرة.. وقالت كوكي:

– أما أنا فسأبقى حتى يغلق الملهي.. كما أن أفالون قد تحتاج إلى إحضار بعض لوازمها وسوف أحضرها معي.

فأدرك لوبين أن أفالون لا تعلم بأن زلرمان سوف يكون من أعضاء هذه الرحلة.. وتحقق من ذلك عندما كانوا يهمون بالانصراف، إذ مرت بهم في تلك اللحظة عائدة من حجرة الزينة وكانت عيناها شاردتين، وفي أساريرها مسحة من الكآبة والوجوم..

– طاب مساؤك يا أفالون؟

فردت الفتاة تحيته في اقتضاب دون أن تدع له فرصة التحدث إليها، إذ مضت في طريقها لا تلوي على شيء.. على حين ظل الدكتور زلرمان يتبعها بنظراته وقد جمدت أساريره حتى غدا كتمثال من الرخام.

***

فلما فتح عينيه ثانية، كانت الأنوار الكاشفة للسيارة لا تزال تخترق الظلام.. فأشعل لفافة، وعندئذ قال زلرمان:

– لقد اقتربنا من وجهتنا..

ولم تمض برهة حتى بدت للعيان منازل سوثامبتون الصغيرة، وقد هجعت في سكون الليل.

وبعد قليل استقرت بهم السيارة أمام أحد الأكواخ المتناثرة على الشاطئ.. ولكنه لم يكن كوخاً صغيراً كما دعته كوكي في تواضع، وإنما كان منزلاً متوسط الحجم ذا طابقين، فتحه زلرمان بمفتاح معه وأضاء النور، فولجوا إلى بهو متوسط السعة بأحد أركانه درج خشبي يؤدي إلى الطابق الأعلى.. ومضوا بعدئذ إلى قاعة استقبال فسيحة لا تقل في السعة عن (قبو كوكي) نفسه، ذات نوافذ واسعة منخفضة على الطراز الفرنسي تطل على البحر، وأرائك وثيرة كبيرة.

وأزاح زلرمان مرآتين كبيرتين عن أحد الجدران، فانزلقتا بداخله، وكشفتا عن (بار) أنيق ذي ثلاثة مقاعد عالية، ورف رصت فوقه زجاجات من الشراب مختلفة الأنواع.. فدخل زلرمان خلف المنضدة وهو يقول: ماذا تقولون في كأس من الشراب؟

فصاح هوجان: يقينا يا دكتور!.. لا ريب أن هذا ما كنت أحاول النطق به عندما كنت نائماً أحلم بقناة السويس أثناء مجيئنا وعندئذ قالت كاي: سوف أذهب لأحضر لكم بعض قطع من الثلج.

قال هوجان: سأذهب معك لمساعدتك.

وخرجا معاً، بينما جلس لوبين على أحد المقاعد أمام المقصف، وأسند مرفقه فوق المنضدة وهو يرفع قبعته الرثة إلى الوراء.. ووضع زلرمان بعض الأكواب أمامه، ثم انتقى زجاجة من الويسكي المعتق وراح يصبه فيها..

وما لبث أن قال في بساطة: هل أنت مع باتريك في نفسه السفينة؟

– كلا.. لقد تقابلنا في مورمانسك.

– طبعاً.. كان ينبغي أن أذكر ذلك.. وهو ذاهب إلى سنغافورة وأنت إلى شنغهاي..

– تماماً يا سيدي..

– هل تعرف باتريك منذ مدة طويلة؟

– منذ الحرب الماضية فقط.. وكان ذلك في مورمانسك.

– ولم تره حتى التقيتما في (مقصف كوكي الليلة)؟

– بالضبط.. وقد قلت له أني رأيته من قبل.. فقال لي إنه رآني من قبل.. و..

ومضى لوبين على هذا النحو من الأقوال التي يبدو فيها اشتداد

الثمل به..

بينما كان زلرمان منهمكاً في إعداد الشراب.

وعاد باتريك وكاي ناتيللو بعد قليل يحملان الثلج، فمضت ساعة أو نحوها ولوبين يثرثر مع الدكتور زلرمان على حين جلس باتريك وكاي على الأريكة والأول يغني بصوته الأجش أغنية (هل جاءت والدتك من أيرلندا؟) بينما أسندت المرأة رأسها إلى كتفه ومضت ترشف قطرات من كأسها حتى لا تملأه ثانية، وقد ارتسمت في محياها سمة شريرة لا تناسب المجال..

وما مضت ساعة حتى وقفت سيارة أمام الباب، ثم سمع وقع أقدام ودخلت كوكي تتبعها أفالون دكستر، ثم فرديناند بيرفيلد.. ولكن لوبين لم يبال حتى بالنظر إليه، وركز نظراته على أفالون.

وألقت الفتاة نظرة سريعة على الحاضرين، فلما رأت زلرمان بدأ عليها الوجوم والضيق لحظة خاطفة بحيث كان مترقباً ما يبدو في أساريرها عند رؤية زلرمان، حتى يتبين إن كان وجوده مفاجأة لها حقاً.

ولوحت أفالون بيدها محييه، ثم ألقيت بنفسها على الأريكة بجوار باتريك هوجان وكاي ناتيللو وراحت تثرثر مع هوجان عن النوادي

الليلية والأغاني.

وملأ زلرمان قدحين أحدهما لكوكي ثم مضى بالآخر نحو أفالون فقدمه إليها وجلس على مسند الأريكة بجوارها وهو يقول في تودد:

– أما وقد اجتمعنا كضيوف هنا فهلا تركنا الخصام وتصافينا؟

فنظرت إليه أفالون قائلة في صوت خافت:

– لقد دفعت إلى الحضور دفعاً. ومع ذلك فسوف أدع خصامك وأصفح عنك إذا ابتعدت عن ذراعي..

ثم استدارت لتستأنف حديثها مع هوجان عن الأغاني.

وكان لوبين قد سمع ما قالته للطبيب إذا كان قد أرهف سمعه لحديثهما، وعندئذ مضى إلى ما وراء منضدة البار وملأ لنفسه قدحاً كبيراً من الويسكي المعتق.

فلما نظر نحو زلرمان ثانية وجده واقفاً مع كوكي وعلى فمه تلك الابتسامة الخالدة.. على حين كان باتريك يبين لأفالون كيف تغني أغنية (عندما تبتسم العيون الأيرلندية) وكان زلرمان يقول:

– إن الغد موعد مناسب تماماً.

فأجابته كوكي: بل لا يزال أمامنا متسع من الوقت.

ثم سارا معاً نحو (البار).. وفي الوقت نفسه كان مستر بيرفيلد يتسكع في الحجرة وقد بدا عليه الامتعاض لأن أحداً لم يبد أي تقدير نحوه أو يحتفي به، ولأنه كان يحس نفوراً واشمئزاز حيال هوجان ولوبين وكان ويرمقهما في ازدراء..

– وعاد الدكتور زلرمان خلف البار، فاتكأ عليه، وبدأ يقول للوبين:

– إنني يا مستر سيمنز، في دراستي المختلفة للنفس البشرية، لم أجد شيئاً يسحرني ويملك على حواسي مثل نفسية البحارة والملاحين.. ولا ريب أنك سمعت ما يقال عنهم وعن (فتاة كل ميناء) و(ماذا نفعل بالملاح الثمل؟) وغير ذلك من الأقوال التي ترمز إلى نفسيتهم المرحة وتركهم لنفوسهم على سجيتها.. وكل ذلك بسبب إقامتهم في البحر ذلك الذي كان يغطي سطح الأرض كلها يوماً من الأيام، والذي خرج منه أجدادنا الأولون ليزحفوا على اليابسة وينشئوا الحياة البدائية الأولى التي نعمل نحن على توسيعها وتكبيرها.

وكان لوبين يرمقه في إعجاب وتقدير وقد بدت عليه علائم عدم فهم ما يقول، بينما كانت كوكي تصب لنفسها كأساً أخرى وتقول لبيرفيلد:

– بالله لا تفسد علينا متعتنا الليلة يا فردي وتناول بعض الشراب

ثم امض لترى هل أعدت الأسرة للضيوف.

وكان زلرمان قد استأنف حديثه مع لوبين، فقال:

– ولنأخذ حالتك مثلاً يا توم.. فعندما تصل إلى شنغهاي..

ولكنه قطع حديثه إذ انبعثت ضجة عالية نشأت من سقوط قدحين وبعض الصحاف على الأرض وتحطمها عندما دفع هوجان الخوان الذي كان أمامه وهو يهم بالوقوف قائلاً في صوت عال:

– إنني أريد الذهاب إلى دورة المياه..

قالت كاي كأنما تلي درساً محفوظاً: الباب الثاني إلى اليمين في البهو.

ولكن هوجان عاد يصيح وكأنه يتحدى العالم بأسره:

– إنني منذ ولدت أعلم أن دورة المياه للبحار هو البحر.. وما كان يفعله نلسن سوف أفعله أنا.

واستدار نحو النافذة العريضة المنخفضة فجذب ستارها وراح يناضل في سبيل فتح مصاريعها.. فتقدم بيرفيلد لمساعدته، ثم هبط إلى الحديقة وراءه..

واستأنف زلرمان حديثه للوبين فقال:

– فعندما نذهب إلى شنغهاي، سيكون همك أن تشرب حتى تثمل،

وأن تجد فتاة تسمر معها.. هل ذهبت إلى شنغهاي قبل ذلك؟..

كلا.. إنها سوف تكون المرة الأولى.. ولا تنس أنك وعدتنى بإرشادي إلى بعض العناوين..

– لم أنس ذلك.. ولو أنني أخشى أن يكون معظمها قد تغير منذ الحرب.. ولكني سوف أجعلك تتصل بصديق لي سيتولى العناية بأمرك.. وأنني أعلم أنك سوف تجده، إذ جاءتني أخبار منه أخيراً..

– وهل يعرف جميع العناوين هناك؟.. أعنى الأماكن المسلية؟..

– إنه يعرفها جميعاً.. وهو رجل ظريف اعتاد أن يبعث إلى ببعض التحف الفنية لمجموعتي.. والواقع أنه ربما أمكنك أن تحضر إلى بعضاً منها معك عند عودتك، فقد كتب لي أن لديه أشياء كثيرة من أجلي لو أتيحت له وسيلة إرسالها..

وتناول لوبين كأساً أخرى بينما كان يتدبر الأمر ويفكر بما ينبغي أن يقوله أو يفعله.. وأخيراً قال: ولماذا لا يرسلها لك بالبريد؟..

– ربما بدا لك الأمر سخيفاً ولكن الواقع أنه لا تزال القيود شديدة على استيراد العاديات..

فغمز لوبين بعينيه، وقال: إذن فهو تهريب محمود الأثر؟.. حسناً يا

رئيسي.. إن توم سيونز رجلك الذي تستطيع الاعتماد عليه.. ولتسقط اللعنة على الجمارك، كما كنت أقول دائما..

وراح زلرمان يتأمله في إمعان قبل أن يفتح فمه ويهم باستئناف الحديث..

ولكن لم يتسع له الوقت لذلك إذ انبعثت ضجة عالية من ناحية النافذة، وانفرج الستار عن فراديناند بيرفيلد وهو يخطو إلى الحجرة وقد تمزقت سترته وقميصه، وراح يصيح كطفل صغير يشكو لأمه، وهو يقول كوكي:

– كوكي إن ذلك الرجل الفظيع كاد يقتلني.. لقد مزق لي ثيابي..

وتلا ذلك دخول باتريك هوجان، قبل أن يستطيع أحد أن يقول شيئاً. وكان يزأر قائلاً في مرح: يقيناً لقد كنت أنتظر هذه الفرصة..

ومضى نحو البار فوضع يده اليسري على منكب لوبين وأداره قليلاً وهو يستطرد:وأنت يا توم يا بني. إنك لست بصديقي إذ سمحت له بالخروج ورائي.. وإذا كنت تعد ذلك دعابة منك فهاك جزاؤك..

وقبل أن يدرك لوبين ما يتهدده، رفع هوجان قبضة يده اليمني وأهوى بها في لكمة عنيفة أصابت فكه، فسقط عن مقعده، وتراءت أمام ناظريه أضواء ملونة ساطعة، تلاها ظلام دامس إذ غاب عن الصواب..

الفصل العاشر

أفاق لوبين من سباته تدريجياً وهو يبذل جهداً خارقاً كأنما ينشل عقله وحواسه من هوة عميقة بعيدة القرار. .

وعلى الرغم من أنه كان يعرف أنه قد صرع بضربة قاضية إلا أنه كان لديه الكثير من الأشياء التي ينبغي أن يستجمع حواسه تماما قبل أن يتذكرها..

ولم يفتح عينيه للتو إذ أحس بألم شديد بين صدغيه جعله يقطب حاجبيه ويسكن مكانه بلا حراك.. ومن عجب أنه فقد الشعور كثيراً من قبل، ولكن لم يسبق له أن خر صريعاً وغاب عن الصواب من لكمة باليد المجردة، وإنما عندما كان يصاب من آلات صلبة بيد أعدائه.. ومهما يكن من أمر فلم تكن غشيته لتطول ولم تكن إفاقته ليصحبها هذا الصداع العنيف إلا عندما يدس له المخدر في الشراب فيحس

بالأعراض التي يحس بها الآن..

وعاد يفكر في أنه الليلة لا يحمل سلاحاً على عادته كلما خرج لمغامرة.. ولكن الذي يهمه الآن هو أن يستوثق من أنه لا يزال يرتدي ثياب تنكره..

ولعل الشك الوحيد الذي كان يتراوحه هو في بقاء شعره على ما كان عليه من الشيب الزائف إذ كان قد رشه بمسحوق الطلق الناعم.. أما دهان وجهه ولصق شاربه فقد كان واثقاً من بقائهما على حالهما إذ صنعهما من مواد لا تؤثر فيها المياه..

وبعد لحظة أدرك لماذا سبح تفكيره إلى هذه الوجهة بالذات، فقد كان هناك شخص يجلس بجواره ويرطب وجهه بمنشفة مبللة، ويهز كتفيه في رفق.. بل لقد كان يهتف به في همس رقيق: توم!.. توم!..

وكان الصوت مألوفاً لديه.. فحاول أن يفتح عينيه، ولكنه ما أن فعل حتى أدرك أنه ليس ثمة أي تغيير.. ترى هل أصابه العمى؟

وعاد الهمس الرقيق يردد: توم.. استيقط!..

فغمغم لوبين في نبرات النعاس: أفالون يا حبيبتي!.. وعندئذ أحس بوجه ناعم يلامس وجهه ويتمسح على وجنتيه، وشفتين دافئتين تلعقان فمه، وذراعين حانيتين تضغطان على جسمه الساكن..

وبالصوت الرقيق يهمس في لهفة:

– لوبين.. حبيبي لوبين.. أفق يا عزيزي.. استيقظ.. ويلاه! يالي من غبية! كيف لم أعرفك؟..

وأفاق لوبين تماماً.. وغمغم قائلاً: أفالون!.. لقد تركت لك رسالة تليفونية أنني سوف أراك في الغد.. ولا ريب أن الغد قد حل الآن.. ولكنني لا أستطيع رؤيتك.. أليس ذلك سخيفاً؟..

– لقد أطفأت النور ثانية حتى لا يبدو من أسفل الباب..

– ولكن كوكي توسلت إلى أن أفعل، بعد أن اعتذرت لي في حرارة.. و..

– اذكري لي ما حدث تماماً..

– بعد أن أصابك باتريك وصرعك قالت كوكي إنك لم ترسل فرديناند خلفه، بل هو الذي تبعه من تلقاء نفسه، أو أنها هي التي أرسلته.. فتألم باتريك لخطئه كثيراً.. ومن ثم وضعتك في الفراش وانفض الجميع بعد أن قال الدكتور زلرمان إنك ستنام طويلاً..

– ولكني لم أنم قط من لطمة تصيبني..

– إن باتريك رجل قوي.. فقد حملك وارتقي بك الدرج بمفرده..

– ليس لقوته شأن في الأمر.. ولا ريب أنني تناولت مخدراً، فقد كان زلرمان هو الذي يملأ الأقداح، ومن المحقق أنه وضع لي شيئاً فيها ولكني أفيق الآن.. ولو أن زلرمان كان يعتقد أنني سأنام طويلاً..

– وهل أفقت تماماً؟..

– إنني لم أثمل البتة الليلة يا بنيتي، مهما بدا على من اشتداد السكر بي.

– ولكنك لن تستطيع النهوض الآن؟..

– من قال ذلك.. أصغي إلي.. لقد كنت ترطبين وجهي بمنشفة مبللة، فمن أين حصلت على الماء؟...

– إن المغسل هنا في ركن الحجرة..

– خذيني إليه إذن.

فقادته الفتاة في الظلام إلى المغسل حيث راح يريق الماء فوق رأسه وهو يحاذر حتى لا يند عنه أي صوت.. وما لبث أن أحس بقواه وصفاء ذهنه يعودان إليه.. فقال:

– إنني على ما يرام الآن يا أفالون.. فأخبريني..

– بل نبئني أولاً كيف فعلت ذلك، ولماذا تنكرت هكذا وما الذي جئت تفعله هنا؟

– لقد ابتعت ثياباً قديمة لأحد البحارة، وجئت إلى هنا لأنني دعيت إلى الحضور.. ولكن الأهم هو أن تخبريني لماذا كنت تحاولين إيقاظي في هذا الوقت المتأخر من الليل؟..

فأجابته في هدوء: لقد كنت خائفة!..

وكان يحس بتصلب جسمها بجانبه، وتوتر أصابعها في يده، وهي تستطرد:

– وقد انتابني الجزع عندما رأيت زلرمان، فلم يقل لي أحد شيئاً عنه، مما يدل على أنهم تعمدوا إخفاء وجوده عني.. ولم أبال بالأمر أولاً، فما يستطيع زلرمان أن ينالني بسوء أثناء وجودكما هنا ولو أنك وباتريك كنتما ضيفين ولن تتدخلا في شئوننا الخاصة.. فلما رأيت باتريك يصرعك لغير ما سبب، عاودني الفزع.. حتى إذا ما أويت إلى فراشي، ولم أطق النوم ورحت أفكر في الأمر ملياً، وظللت مسهدة أرهف السمع، فتبينت أن الباقين لن يناموا بعد ذلك، إذ كنت لا أفتأ أسمع أصواتاً غريبة خافتة.. ولكن أحداً لم يدن من حجرتي، ولم يحاول اقتحامها، ولو أنني كنت قد حرصت على إيصادها.. وكانت الأصوات التي أسمعها تبدو لي غريبة حقاً، كأنما يحاول أصحابها إخفاءها عن السمع... فلما اشتدت بي الهواجس واستبد بي الذعر شعرت بحاجتي

إلى شخص أتحدث إليه، ولم أجد خيراً منك أو من باتريك.. ولم أكن أعرف ما يمكن أن أقوله لك عندما حضرت إلى هنا، ولكن لم أفكر في شيء من ذلك.. فلما جئت وأضأت النور وتبينت أن باتريك ليس في فراشه، وأنك ملقي كالجثة الهامدة لارجاء في استيقاظك كما قال زلرمان، جن جنوني وكدت أصيح من فرط الرعب..

وكان لوبين يحيطها بذارعه ويضمها إليه، على حين كانت يده الأخرى موضوعة فوق فخذه، فأحس بشيء معدني حاد الزوايا تحت يده، وما لبث أن مد يده إلى سرواله ليحاول أن يتبين كنه هذا الشيء أثناء حديثه مع أفالون، ثم قال:

– ينبغي أن أخبرك بشيء أو اثنين يا عزيزتي، على أن أقص التفاصيل عليك فيما بعد إذا اتسع لنا الوقت.. فنحن الآن في موقف ترخص فيه الحياة البشرية حتى تغدو أقل من التراب، فاصغي إلى ولا تقاطعيني..

وتمهل لحظة قبل أن يتابع حديثه فيقول:

– إن العلاقة بين رقم ٩٠٣ ببابلنج رود بشنغهاي، وبين المرفأ والميناء في نيويورك ليست مبنية في أية خريطة بحرية، ولكني سأوضحها لك بأن أقص عليك قصة صغيرة.. فيحكى أن رجلاً ولنسمه مثلاً الدكتور زلرمان، وخطرت له فكرة بادية البساطة.. هي أنه إذا استطاع

أن يزود شخصاً ما بالمخدرات، استطاع أن يجعل منه آلة يسيرها كيفما شاء.. وكانت الحرب قد قضت على تهريب المخدرات قضاء مبرماً، إلا أن إحياء هذه التجارة كان متوقعاً منذ أن غدت هيروشيما من الذكريات التاريخية.. وبذلك بدأت الصلة بين شنغهاي ونيويورك.. وكان الأفيون موجوداً بوفرة في الشرق وقد خزنه تجاره في انتظار انتهاء الحرب وكانوا يعلمون أن البواخر التجارية سوف تعاود مسيرها وأن الكثير منها يمر بنيويورك.. ومن ثم جمع الدكتور زلرمان حوله زميلاً أو اثنين واختارا مركزاً لعمله هنا، ولنسمه مثلاً (مقصف كوكي) حيث يدعى بحارة البواخر التجارية ليأكلوا ويشربوا ويستمتعوا ما طاب لهم الاستمتاع، وكل ذلك بلا مقابل. ويقع الاختيار على بعضهم فيدعون الاستزادة من الشراب والطعام والمتعة في (قبو كوكي) حيث يقدمون للدكتور زلرمان، فيستطيع بخبرته وبراعته كعالم نفساني أن يستشف مواطن الضعف فيهم ولا يلبث أن يقول لبعضهم. ما رأيك في ربح بعض المال الحلال؟.. إليك مائة دولار على الحساب، وما عليك عند وصولك إلى شنغهاي إلا أن تقصد إلى ٩٠٣ شارع بابلنج رود فتقول (لقد أرسلني جورج..) ثم تحضر اللفافة التي تعطى إليك وتسلمها إلى مستر جيمس براثر مثلاً فتنال المزيد من المال..

ولكن بيع هذه المخدرات وتوزيعها لا يكاد ينتج الأرباح المتوقعة منها بما يكفى المشتركين فيها.. ومن ثم تبدأ العملية الثانية وليس ثمة شخص يستطيع أن يمد مرضاه بالمخدر مثل الطبيب البارع.. حتى إذا ما وقعوا تحت سلطاته أمكنه أن يكتشف أو يخلق ما يمكن أن يستخدمه في ابتزاز المال منهم.. وهكذا تنتشر شبكة واسعة من الإجرام تبدأ في شنغهاي وتنتهي بعيادة الطبيب مارة بالمقصف والملهي اللذين تديرهما كوكي..

فقالت أفالون وهي تلهث دهشة: إذن فالأمر كذلك؟.. إن هذا يفسر لي أشياء كثيرة كنت لا أفهمها من قبل..

وأدرك لوبين أن الفتاة صادقة في دهشتها، وأنها لم تكن تعرف شيئاً مما حولها.. وفي ذلك الوقت كانت أنامله لا تزال تعبث بالجسم المعدني الذي وجده في جيب سراوله دون أن يستطيع معرفته تماماً، فقال:

– هل يمكنك أن تجدي عليه ثقاب يا أفالون؟..

وسرعان ما أشعلت الفتاة الثقاب، وعلى ضوئه رأى لوبين ذلك الشيء وقال: لا ريب إن هوجان قد وضع علامته في جيبي كمحاولة أخيرة يائسة لطلب النجدة والمعونة.. وهو لم يعرفني قط كما لم أحسب أن يكون هوجان أحد ضباط هيئة مكافحة التهريب بمصلحة الضرائب!

وانطفأ عود الثقاب، فاستطرد لوبين:

– ولقد أدركت أنه ينتمي إلى إحدى الهيئات الرسمية عندما وجدت علامته في جيبي منذ قليل.. ما قبل ذلك فقد كنت حائراً في هويته.. وقد تبينت عندما كنا في المقصف أنه يحمل مسدساً في جيبه، كما تبينت في مغازلته لكاي ناتيللو أنه يمثل دوراً معيناً، إذ أنها امرأة لا يمكن أن تكون فتاة أحلام البحارة وموضع غزلهم. ولكني كنت أحسبه من أفراد العصابة وأنه يمثل هذا الدور للتغرير بي.

– ولكن لماذا صرعك إذا لم يكن منهم؟..

ليزيحني من الطريق، إذ لم يعرف شخصيتي.. فقد أديت دور الملاح الكهل في براعة لا بأس بها، ومضيت كأنما أحاول استرضاء كوكي وزلرمان.. وأراد هوجان أن ينفرد بمهمته في ضبط العصابة، وخشي أن أكون شديد الثمل بحيث لا أذكر ما أراه أو أرفض أداء الشهادة معه، ولذلك افتعل هذه المسرحية البارعة ليتخلص مني.

– ولكن أين هوجان ما دام ليس في فراشه؟ ولماذا ترك علامته معك؟

– إما أن يكون قد فعل ذلك ليرشدني إلى حقيقته فأطبق فمي وأخلد إلى الصمت، وإما أنه تبين مقدار الخطر الجسيم الذي يقدم عليه، فأراد أن يدفعني إلى إبلاغ السلطات إذا ما أصابه شيء.. ومهما

يكن من أمر فسأمضي للبحث عنه..

وأرادت الفتاة أن تثنيه عن عزمه فطمأنها إلى أنه قد استعاد قواه تماماً، وطبع قبلة حارة على فمها، ثم مضى نحو الباب ففتحه..

وكانت الردهة معتمة ساكنة لا حياة فيها، ولكنه ما لبث أن سمع ضوضاء خافتة تبين فيها همهمة أصوات تتحدث، وصليلاً معدنياً ينبعث من الطابق الأسفل.. ولم يستطع أن يميز شيئاً محدوداً من هذه الضوضاء أو كلمة مفهومة من الحديث ولكنها كانت توحي بالرهبة وتنم على أشياء خطيرة تجرى في مكان ما بأسفل الكوخ.. أشياء تدفع لوبين إلى المبادرة باكتشافها، إذ تدل على أن باتريك هوجان في ورطة مروعة وخطر داهم، وأنه فقد مسدسه وإلا لكان للضوضاء مظهر آخر مختلف كل الاختلاف عما هو عليه الآن..

وكان يتحرك في حذر كالمهر، وأرهف السمع عندما سمع صوتاً جديداً يطغى على الضوضاء الخافتة.. كان صوت اثنين يتحدثان.. فلما استطاع لوبين أن يركز حواسه في الإصغاء، تألقت في ذاكرته ومضة خاطفة من الفهم..

فقد كان أحد الصوتين مماثلاً لذلك الذي سمعه في التليفون عندما سطا على عيادة الدكتور زلرمان..

وكان صوت فرديناند بيرفيلد..

وأسرع لوبين، تتبعه أفالون، نحو الباب الموصد الذي ينبعث من ورائه صوت فرديناند والدكتور زلرمان، فسمع الأول يقول:

- كلا. لن أفعل شيئاً من ذلك.. فهذه مهمتك ويجب أن تتمها يا أرنست!

وقطب لوبين حاجبيه.. فلم تكن نبرات بيرفيلد تلك تبدو فيها السلطة والأمـر.. ولم تكن تلك النبرات الواهنة النبرات المخنثة الرقيقة، وإنما كانت الآن صارمة قوية الضراعة التي شكا فيها لكوكي ضرب هوجان إياه وتمزيقه ثيابه وإنما كانت الآن نبرات رجل يستطيع أن ينطق بحكم الإعدام على كثيرين.

وانبثقت أشعة المعرفة في رأس لوبين.. وإذا به يتبين أن زمالة الدكتور زلرمان وكوكي وكاي ناتيللو، وصلتهم جميعاً بسام حفريز وجوهيمان وإضرابهـما واشتراكهم مع جيمس براثر وغـيره، إنما تشبه خيوط الشبكة التي ينسجها العنكبوت ويربط فيما بينها في دقة وإحكام لقضاء أغراضه.. وأن ذلك العنكبوت الشرير.. الرأس المدبر لهذا كله والذي ينشده لوبين من بادئ الأمر، إنما هو مستر فرديناند بيرفيلد الفنان!.

أحس لوبين بأصابع أفالون تضغط على ذراعه، وقد تملكها دهشة

طاغية فراح يربت على يدها وهو يصغى إلى بيرفيلد إذ استطرد قائلاً:

– سوف يكون أمراً فظيعاً أن نفقدك يا أرنست.. ولكنك تعرف تماماً كم تود إدارة المخابرات السرية أن تعلم السر في قدومك من فينا كلاجئ سياسي. وقد أخذتك في حمايتي كل هذا الوقت، ولكني لن أفعل ذلك إلى الأبد.. فإذا تخليت عن عملك معنا وحدث شيء..

– إنني لا أريد أن أتخلى عن العمل يا فرديناند.. ولكن الرسائل التي اتبعناها معه لم تؤد إلى نتيجة مثمرة.. وفي ظني أنه سوف يموت قبل أن يخبرنا بما يعرفه..

وكان الدكتور زلرمان يقول ذلك في ضراعة ومذلة، على حين كان صوت بيرفيلد يفيض بالقوة والصرامة إذ أجابه:

– حذار أن يحدث ذلك فإنني أريد معرفة كل ما يعمله هذا الرجل.. ولن أشترك معكم.. فإنك تعلم أني لا أطيق رؤية مناظر الدماء والتعذيب، وإنها تصيبني بآلام فظيعة..

– ولكن هذا لم يكن شأنك في حالة ألبرت فولي.. فلم يبد عليك أي تأثر وقتئذ..

– آه!. لقد تأثرت تماماً.. وعندما طعنته بتلك المدية، كاد يغمى على، وكدت أصيح فزعاً. ولكني كنت مضطر لهذا العمل إذ كان فولى يعبث

بنا ويسعى لبيعنا ويحاول أن يبتز المال منا بهذا التهديد.. وكان يجب عليك أنت أن تتولى أمره.. فلما لم تفعل اضطررت إلى التدخل مكرهاً.

– ألا تريد أن تحضر لمساعدتنا الآن؟..

– كل ما في الأمر أنني أريد هذه المعلومات في الحال.. وعندئذ جذب لوبين أفالون بعيداً عن الباب وأسرعا إلى ركن البهو فوقفاً ملاصقين للجدار في سكون مطبق حتى غادر الدكتور زلرمان حجرة فرديناند متجهاً نحو الدرج المؤدى إلى الأسفل دون أن تتجه نظراته ناحيتهما.

وكان على لوبين أن يسكت بيرفيلدا أولاً، فمضى نحو الباب وفتحه على مصراعيه.. وكان فرديناند يقف في وسط الحجرة مرتديا منامة بلون الكريز فتحول ليواجه الداخل وراح ينظر إليه في غير اكتراث، كما لو كان يتوقع أن يرى زلرمان عائداً إليه ليعتذر عما فرط منه.. ولكنه إذ رأى لوبين، ظلت أساريره على جمودها، بيد أن المفاجأة هزت كيانه هزا وأحس بدبيب الهلع يسري تحت جلده ثم ينبثق من مسامه على هيئة عرق غزير.. وما لبث أن ارتسم الفزع على وجهه الجامد، ولم يعد يستطيع الحراك من مكانه أو ينبس ببنت شفه..

وأسف لوبين لحالة الفتي ورثى له.. ولكن مستر بير فيلد كان يهدد

السلام والهدوء اللذين يحتاجهما لوبين لإتمام مهمته، ومن ثم تقدم نحوه وقبض على عنقه، وهو يغمغم:

– ألا تعلم يا فردي أنه قد حان الوقت لنوم الفتيات الصغيرات؟..

ثم رفع قبضته وأهوى بها على فكه وأسرع يتلقاه بين ذراعيه وقد غاب عن الصواب.. ثم نقله إلى الفراش وأوثق يديه وقدميه وثاقاً محكماً وكمم فاه حتى يمنعه من الصياح إذا ما أفاق من غشيته.. وبعد ذلك راح يفتش ثيابه فلم يعثر على أي سلاح بها، كما لم يجد في الحجرة نفسها شيئاً يستحق الذكر.

وغادر لوبين تلك الحجرة، في طريقه إلى الدرج، وقد أحس بأن الفزع الذي تملك مستر بيرفيلد لم يكن بسبب رؤيته له، فما ينتاب الفزع ذلك الأفعوان لمجرد رؤية توم سيمونز الملاح الكهل الثمل، وإنما لأن هناك شيئاً يجرى في مكان ما من ذلك المنزل يخشى بيرفيلد أن يراه أحد، شيئاً يهدد حياة باتريك هوجان بخطر الموت، إن لم يكن الموت نفسه..

وبلغ لوبين نهاية الدرج. وأفالون معه.. ولو أن الفتاة أرادت النجاة بنفسها لكان ذلك ميسوراً لها إذ غدت على قيد ذراعين من باب الخروج.. ولكنها راحت تنظر إلى لوبين في عزم وجرأة، وإن كانت الحيرة واللهفة تخالطان نظراتها الصارمة..

وكان باب حجرة الاستقبال موصداً.. ولكن الأصوات التي انبعثت خلاله، كانت واضحة الدلالة على ما يجرى بداخلها..

وابتسم لوبين للفتاة، وتركها ثم مضى إلى المطهى وما لبث أن عاد ومعه سكين مقوسة مرهفة النصل ذات مقبض من العاج، دسها في كمه الأيسر وثنى ذراعه قليلاً ليثبتها في مكانها..

وأدنى فمه من أذن أفالون، وقال في صوت خافت: أسرعي بالخروج يا عزيزتي، وخذي إحدى السيارات واذهبي إلى المدينة لإبلاغ رجال الشرطة وإحضارها إلى هنا بأسرع ما في وسعك.

وفي خلال ذلك سأقوم بمناوشتهم حتى لا يفر أحدهم..

ولكنها هزت رأسها نفياً.. وما كان في استطاعته أن يجادلها وقتئذ.. فتركها وهو يرجو أن تغير رأيها، ومضى نحو باب حجرة الاستقبال فانحنى لينظر خلال ثقب المفتاح ليتبين الموقف الذي سيواجهه عند دخوله.

وكان ما رآه شيئاً رهيباً.. بلغ من هوله أنه جعل الرعد تسرى في أوصال أرسين لوبين نفسه..

وفي اللحظة نفسها سمع صوت الدكتور زلرمان يقول في نبراته الرقيقة: لماذا لا تتعقل يا باتريك وتخبرنا بما تعرفه؟.. ألا تعلم أنني

سوف أمضى في هذا العمل إلى النهاية حتى تعترف لنا بكل ما عرفته أثناء تنكرك؟

واختفت الصورة الصغيرة التي تبدو من ثقب المفتاح ليحل محلها منظر كامل دقيق التفاصيل عندما دفع لوبين الباب على مصراعيه..

وكان ذلك شيئاً لن ينساه لوبين مدى الحياة.. كان منظراً من مناظر الأساطير التي تروى عن القرون الوسطى ومحاكم التفتيش..

كان الدكتور زلرمان يقف منتصب القامة يجلل هامته شعره الأشيب المهيب، وبين أصابعه لفافة لم ينفض رمادها مما يدل على رباطة جأشه وهدوء أعصابه.. بينما كان أمامه باتريك هوجان مقيد اليدين والقدمين إلى أحد المقاعد وعرق الألم يتصبب من جبينه ويسيل على عينيه ووجنتيه حتى يختفي بين طيات الكمامة التي شدت فوق فمه..

وكانت المرآتان تقفان إلى جانبه، وقد اختفت الابتسامة التقليدية من أساريرهما، وارتسمت محلها سمة شيطانية مروعة.. ولعل الأحرى أن تقول الجلادين، فقد كانت المرأتان تتوليان بنفسيهما عملية التعذيب الرهيبة، وقد أمسكت كاي ناتيللو بمحرك النار وهو يتوهج احمرارا من شدة الحرارة، وتضعه على قدم باتريك العارية فيسمع لنزوله هسيس غريب تفوح على أثره رائحة الجلد المحترق.. وعندئذ تهتز الكمامة فوق

فم باتريك وتنبعث من حلقة همهمة تقطع نياط القلوب.

كما يهتز وجهه كله تحت صفعات كوكي المدوية وهي تواليه الصفعة تلو الأخرى بيدها المكتنزة الثقيلة.

وسار لوبين إلى داخل الحجرة فارغ اليدين، والسكينة مثبته لصق ساعده..

فما كاد زلرمان يراه حتى امتدت يده في عجلة إلى جيبه الخلفي، ولكنه ما لبث أن استعادها وقد بدت في محياه علائم التردد..

فقد تحول لوبين ثانية إلى توم سيمونز الثمل المترنح.. وكان شديد السيطرة على أعصابه حتى لا تخونه في تلك اللحظات الحاسمة الدقيقة التي كانت أقل حركة خاطئة يأتيها كفيلة بأن تورده وباتريك هوجان وموارد الهلاك معاً..

وهتف في تلعثم من فرد السكر:

– هالو دكتور!.. ما قولك في كأس أخرى لمحسوبك؟.

فرأى زلرمان تنفرج أساريره قليلاً.. كما رأى كوكي وناتيللو تنظران إليه في جزع وترقب وأمل.. وعندئذ قال الطبيب:

– لا ريب أنك قد فقت من جديد ياتوم.. فقد كنا لا نتوقع أن تفيق قبل الصباح من فرط ما شربت.. وها أنت تستيقظ بينما نهم نحن

بالذهاب إلى الفراش..

– لقد كنت نائماً.. ولكن أفقت على ظمأ شديد فجئت لأرطب حلقي ببعض الشراب..

وتظاهر بأنه يرى هوجان للمرة الأولى فتقدم نحوه في تعثر، وهو يقول.

– آه!.. ها هو الوغد الذي صرعني.. ألا دعني أذيقة بمثل ما أذاقني. فقال زلرمان: لقد أفرط باتريك في الشراب، وهانحن نحاول أن نحمله إلى فراشه..

وكان الطبيب يتحرك في مهارة وخفة ليحول بين لوبين ورؤية الحالة التي كان عليها هوجان.. ولكن هذا لا يفتأ بتقدم خطوة بعد أخرى وهو يكاد يسقط على الأرض من شدة الترنح..

وبغته رأى الطبيب يتصلب وجهه، وتلوح في عينيه نظرة رهيبة وقد استقرتا على شيء معين خلف لوبين.. فأدرك هذا أن أفالون لم تطق الصبر، ودخلت الحجرة وراءه..

وتوالت الأحداث في مثل وميض البرق، فقد أخرج زلرمان مسدسه وأطلقه فأصاب لوبين في ذراعه في اللحظة نفسها التي كان هذا فيها قد شد ساعده وتلقى بيده اليمنى مقبض السكين التي يحملها.. وقبل أن يتسع الوقت لزلرمان ليطلق رصاصة أخرى كان

لوبين يدفع السكين في صدره حيث غاصت حتى المقبض، ثم يختطف المسدس من يده المتراخية، قبل أن يهوي إلى الأرض..

وهجمت عليه كاي ناتيللو وقد شرعت قطعة الحديد المتوهجة في يدها، فاضطر لأن يطلق على تلك اليد رصاصة من مسدس زلرمان جعلت المرأة تصيح في ألم بالغ وتسقط الأداة الجهنمية من يدها..

الفصل الثاني عشر

وقال هاملتون في أسف: أما كان في وسعك أن تبقى على حياة زلرمان حتى ينال جزاءه ؟

– وهل كان في وسعك أن تمنعه من قتلى ؟ . .

إن الدفاع عن النفس أمر مشروع يا صديقي.. ومع ذلك فقد تركت لك في الوكر الأفعوان الأكبر واثنين من أفاعيه..

– هذا يكفى الآن.. ويجدر بك أن تغادر المكان، وسوف أتصل بك في نيويورك إذ لدى مهمة أخرى من أجلك..

– هكذا تريد دائماً ألا تدع لي فرصة للراحة.. أجل.. سوف أترك المكان لهوجان، فإن فيه الكفاية..

– فلما أعاد مسماع التليفون مكانه، تحول إلى باتريك قائلاً:

– إنها قضيتك أنت يا باتريك. وعلى فكرة، هل هذا اسمك الحقيقي؟

فأومأ الضابط المنكود برأسه.. وكأن لوبين قد فعل كل ما يستطيع في سبيل تخفيف آلامه، ولكن وجهه كان شديد الامتقاع.. وما لبث أن غمغم قائلاً: أجل.. هوجان هو اسمى الحقيقي.. ولكنك خدعتني تماماً بتنكرك البارع.. لم أكن أتوقع البتة أن تكون أرسين لوبين عندما تركت علامتي النحاسية في جيبك، وإنما كنت كالغريق يتعلق بالقش، وخيل إلى أن الأمل لا يعدو واحداً في الألف إذ كنت أحسبك من أولئك البحارة السكاري الذين تلتقطهم العصابة لتستخدمهم في التهريب.. ولعل ذلك كان السبب في استجابتي لك عندما تمسحت بي في المقصف، حتى أستطيع أن أراقب ما تفعله العصابة معك..

فقهقه لوبين في جذل، وكانت أفالون قد فرغت من تضميد الجرح الذي أصاب ذراعه، وراحت تعاونه في ارتداء معطفه. فاحتضنها بيده الأخرى، وقال لباتريك:

– إن رجال البوليس في الطريق إليك الآن، فلا تقل لهم شيئاً عني.. وإنك لرجل شجاع يا هوجان.. ويسعدني أن عرفتك..

وفي لهجة البحار الثمل، استطرد يقول:

– يقينا يا بني إننا سنلتقي مرة أخرى.. ربما في مورمانسك.